اليهود في مصر

منذ الفتح العربي حتى الغزو العثماني

قاسم عبده قاسم

اليَهود في مَصرَ

منذ الفتح الإسلامي حتى الغزو العثماني

الطبعة الاولى

كانون الثاني (يناير) ١٩٨٠

الدكتور قاسم عَبْده قاسم

اليَهود في مَصر

منذ الفتح الإسلامي حتى الغزو العثماني

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير
ت : ٣١٢١٥٦ ـ برقياً « موكيالي » بيروت
ص . ب . ١١/٥٤٦٠ بيروت

محتويات الكتاب

الفصل الأول : الدولة واليهود

لا شك في أن النظرية السياسية للدولة الاسلامية - أو حتى تطبيقاتها - لم تضع عقبات امام الرعايا من غير المسلمين ، فقد اتاحت الدولة الاسلامية بمفهومها التيوقراطي لرعاياها من اليهود والنصارى قدراً كبيراً من الحرية داخل اطار الدولة التي كان على رأسها خليفة النبي (عليه الصلاة والسلام) يحكم بمقتضى الشريعة الاسلامية المستمدة اساسا من القرآن الكريم والسنة النبوية ، ويبدو منطقيا ان نحاول تتبع علاقة الدول المتعاقبة على حكم مصر منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر سلاطين المماليك برعاياها من اليهود المصريين خلال المراحل التاريخية المختلفة .

عصر الولاة : (٢١ - ٢٥٤ هـ / ٦٤٢ - ٨٦٨ م) :

من الثابت ان المسلمين لم يتعرضوا لحريات المصريين الدينية غداة فتح مصر على يد القائد الداهية « عمرو بن العاص » ، بل إن ذلك القائد استدعى بطريرك الأقباط « بنيامين » من مخبئه في مغاور وكهوف الصحراء حيث كان هاربا من وجه الاضطهاد البيزنطي الذي عانى منه الأقباط بسبب الخلافات المذهبية ، وأمّنه ومنحه قدراً كبيراً من الحرية يسرت له إعادة بناء بعض الكنائس وتنظيم شؤون أبناء الطائفة ، وقد عومل المصريون على أساس أن بلادهم فتحت صلحا[1] ، وكانت أهم شروط الصلح فرض الجزية على المصريين بواقع دينارين عن كل رجل ؛ بينما أعفى منها الشيوخ والنساء والاطفال ، وذلك في مقابل تأمين أهل مصر على أرواحهم وأموالهم ، وشملت هذه الشروط اليهود المصريين الذين كان

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان : ص ٢١٦ / ص ٢٢٠

عددهم في الاسكندرية وحدها وقت الفتح حوالى اربعين الف يهودي ضربت عليهم الجزية(١) .

والواقع ان الجانب المالي كان هو محور العلاقة بين مصر والخلافة اذ كان خراج مصر محط اهتمام الخلافة سواء كان مقرها المدينة أو دمشق أو بغداد ، وقد بدا هذا الاتجاه واضحا منذ وقت مبكر في خلافة « عثمان بن عفان »(٢) .

ورغم الغموض الذي يحيط بأحوال اليهود المضريين في تلك الفترة(٣) ، الا أننا نستطيع أن نقرر دون خوف أنهم قاسوا - مثل سائر المصريين - من عسف جباة الضرائب من جهة ، وتمادي الدولة وجهازها الاداري في ابتزاز اموال المصريين جميعا من جهة أخرى لاسيما بعد نهاية عصر الراشدين ، ولا غرو أن اصبح التنظيم الضريبي في مصر على درجة كبيرة من الاتقان والتخصص بعد ستين عاما فقط من الفتح الاسلامي لمصر ، ومن المعلوم ان السياسة الضريبية التعسفية ادت الى نشوب عدد من حركات التمرد والعصيان كانت آخرها واخطرها واكثرها دلالة على سوء سياسة الدولة المالية تجاه المصريين تلك الثورة التي نشبت في مصر في مطلع القرن الثالث الهجري ، واضطرت الخليفة المأمون العباسي الى القدوم الى مصر بنفسه سنة ٢١٧ هـ / سنة ٨٢٣ م/ لكي يخمدها(٤) .

وبغض النظر عن الجانب الاقتصادي والمالي في العلاقة بين الدولة ورعاياها

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها : ص ٧٠ / ص ٨٥ ، تاريخ ابن البطريق : ص ٢٢ / ص ٢٦ ، المقريزي : الخطط : حـ ١ ص ٧٧ .

(٢) تنقل لنا المصادر التاريخية قصة مؤداها أن الخليفة « عثمان بن عفان » وجه اللوم الى « عمرو بن العاص » لأن خليفته في ولاية مصر « عبد الله بن أبي السرح » زاد من مقدار الخراج ، وقال له « لقد درت اللقحة بعدك يا عمرو » ؛ فأجابه هذا بقوله · « نعم ولكن اجاعت ابناءها » . . . مجسما بذلك حقيقة ما حدث نتيجة زيادة الخراج التي أثلجت صدر الخليفة ، وقد ازداد هذا الاتجاه وضوحا في العصر الأموي ثم العباسي - انظر : البلاذري : فتوح البلدان : ص ٢٢٢ ص ٢٢٣ .

(٣) ترجع اقدم وثائق الجينيزا التي تتعلق بيهود الفسطاط الى عام ٧٥٠ ميلادية - انظر: Mann The Jews under the Fatimids Vol. I P. 13:

(٤) تاريخ ابن البطريق ص ٥٧ ، تاريخ ابن الراهب : ص ١٢٩ ، ص ١٣٠ ، المقريزي : الخطط · حـ ٢ ص ٢٥٩ ص ٢٦١ .

جميعا ، فان الدولة الاسلامية وحكامها في مصر قد التزمت عموما بمبدأ حرية العقيدة ، إذ تميز سلوك عمرو بن العاص تجاه أهل الذمة المصريين (يهوداً ومسيحيين) بالعدالة ويرى بعض الباحثين ان احوال القبط آنذاك كانت خيراً منها تحت حكم الدولة البيزنطية[1] ، وبديهي ان اليهود لاقوا نفس المعاملة ، فقد منح اليهود امتياز ممارسة كل الانشطة الاقتصادية وغيرها بما في ذلك اعمال الادارة في الدولة[2] . وفي عهد الخليفة الأموي « عمرو بن عبد العزيز » (٩٩ - ١٠١ هـ/ ٧١٧ - ٧١٩ م) جرت محاولة لاحلال الموظفين المسلمين محل اليهود والنصارى في الجهاز الاداري للدولة ، الا ان ذلك لم يستمر ساريا مدة طويلة ، وفي عهد الخليفة المتوكل العباسي (٢٣٢/٢٤٧ هـ) صدر مرسوم بطرد اليهود والنصارى من وظائفهم في الجهاز الاداري للدولة ، وبفرض بعض قيود الملابس والمظاهر الاجتماعية الاخرى عليهم[3] ، وقد طبق هذا المرسوم في مصر ايضا بطبيعة الحال ، وان كنا لا نعرف المدى الذي وصل اليه التطبيق في مصر ، ويجدر بنا أن نشير في هذا المقام إلى حقيقة هامة مؤداها أن لهجة مثل تلك المراسيم كانت دائما اعلى من تطبيقاتها ، وهو أمر يبدو واضحا من خلال ما تنقله لنا مصادر تلك الفترة من تاريخ مصر .

ويستدل من كتابات المؤرخ القبطي « ساويرس بن المقفع » أن ثمة عداوة كانت قائمة بين اليهود والنصارى في مصر في ذلك الوقت ؛ إذ يذكر « ساويرس » ان احد النصارى المارقين قد اتفق مع بعض اليهود على الايقاع بالبطريرك لدى الحاكم ، كما يصف « ساويرس » اليهود بأنهم « . . . . اليهود الكفرة[4] . . » ،

---

(١) تريتون : اهل الذمة في الاسلام : ص ٤١ ، Butcher: The Story of the Church: Vol I PP 375-76

(٢) Mann: The Jews: Vol. I. P. 13, Halkine: The Jews, Their hist Vol. I.P. 1116.

(٣) ساويرس : سير البطاركة : مجلد ٢ حـ ١ : ص ٤ - ٦ Mann: The Jews: Vol. I.P. 15.

(٤) ساويرس : سير البطاركة : مجلد ٢ حـ ١ ص ٣٢ / ص ٣٣ .

ويمكن تفسير هذه العداوة عى ضوء تنافس الفريقين في التقرب الى أصحاب السلطة والنفوذ في البلاد من أجل الفوز بمناصب الجهاز الاداري التي كانت وسيلة مضمونة للثراء ، فضلا عن العداء التقليدي بين اتباع الديانتين .

الدولة الطولونية والدولة الاخشيدية :

الواقع أننا لا نستطيع ان نحدد معالم سياسة ثابتة للدولة الطولونية [٢٥٤ / ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ ـ ٩٠٥ م] تجاه رعاياها من اليهود والنصارى ، فيما عدا إشارات متفرقة في بعض المصادر ، وربما يكون هذا راجعا إلى أن حياة اولئك الرعايا من غير المسلمين قد سارت في اطارها الطبيعي ، ويمكن أن نستدل على صحة هذا الفرض بما تمدنا به المصادر من أسماء بعض اليهود والنصارى الذين عملوا في الجهاز الاداري[١] كما استخدم أحمد ابن طولون عددا من الأطباء اليهود[٢] في بلاطه

ويذكر ابن الراهب أن « أحمد بن طولون » باع بعض الكنائس المسيحية لليهود[٣] ولكن Mann يقرر اعتمادا على وثائق الجينيزا[٤] ان البطريرك اليعقوبي ميخائيل قد اضطر الى بيع كنيسة بالفسطاط حتى يستطيع تدبير المبلغ الذي طلبه منه « احمد بن طولون » ، وقد تحولت هذه الكنيسة فيما بعد الى معبد يهودي مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن الغرض من ذلك الاجراء كان مالياً بحتاً ولم يتخذ سمة الاضطهاد الديني .

وعندما أراد أحمد بن طولون بناء عاصمته الجديدة القطائع أمر بتدمير قبور اليهود والنصارى الموجودة في المكان المزمع البناء فيه[٥] ، ولا ندري إن كانوا قد عوضوا عنها أم لا .

---

(١) البلوي : سيرة أحمد بن طولون : ص ١٦١ / ص ١٦٤ .

(٢) ابن أبي أصيبعة : طبقات الاطباء ص ٤٥٠ ، السيوطي : حسن المحاضرة ح ١ ص٣١١ ، أبن تغري بردي : النجوم الزاهرة حـ ٢ ص ١٧ .

(٣) تاريخ ابن الراهب ، ص ١٣٢

(٤) Mann-The Jews under vol.I.pp.14.15

(٥) الكندي : الولاة والقضاء ص ٢١٥ ، ابن دقماق : الانتصار حـ ٤ ص ١٢١ ، ابن تغري بردي : النجوم حـ ٣ ص ١٥ .

وبسقوط الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ (سنة ٩٠٥ م) عادت مصر ثانية الى حظيرة الدولة العباسية لفترة سادها الاضطراب والفوضى والحروب الداخلية واثناء ولاية « عيسى النوشري » على مصر اصدر الخليفة « المقتدر » العباسي مرسوما سنة ٢٩٥ هـ (٩٠٨ م) بالا يستخدم احد من اليهود والنصارى في الدولة إلا في وظائف الطب والجهبذة (اعمال الصيرفة) فقط ، كما الزم اليهود والمسيحيين بلبس الغيار[1] ، ولكن المصادر لم توضح لنا مدى تطبيق هذا المرسوم في مصر[2] ، الا ان هذا التصرف من جانب الخليفة « المقتدر » العباسي يدل على أنه لم يشأ أن يبعد أهل الذمة عن كل مناصب الدولة الادارية ، ولكنه اراد أن يحدد وجودهم في وظائف بعينها ، وربما كان دافعه إلى ذلك محاولة إكساب الأمر الواقع صفة الشرعية واضعاً في اعتباره ما تحتاج اليه الدولة لتسيير جهازها الاداري والمالي .

أما علاقة اليهود المصريين بالدولة الاخشيدية [٣٢٣ - ٣٥٨ هـ / ٩٣٥ - ٩٦٩ م] فإن معلوماتنا عنها ضئيلة بسبب قلة ما تحمله المصادر من اخبار ، وبسبب قصر عمر الدولة التي حكمت فترة تزيد قليلا عن اربعة وثلاثين عاما ، حفلت بالازمات الاقتصادية ، وموجات القحط والغلاء التي اجتاحت البلاد وفتكت بالكثيرين كما أن الاخطار الخارجية التي هددت البلاد من كل جانب جعلت حكم الأخشيد في جملته عبارة عن حملات متواصلة لتأمين دولته مما أرهق البلاد بصفة عامة بسبب فداحة الضرائب التي فرضت لتمويل تلك الحروب ، وهكذا لم يكن لدى الاخشيديين الفرصة لتحديد معالم سياستهم ، وانسحب هذا بالطبع على

---

(١) الغيار : لفظ يطلق على الملابس التي يرتديها أهل الذمة بلون مغاير للون ملابس المسلمين بقصد تمييزهم عنهم ومن الواضح أن لبس الغيار وغيره من الشروط التي عرفت باسم « المستحب » لعقد الذمة ، وضعها الفقهاء في مرحلة متأخرة مغالاة منهم في فرض القيود على غير المسلمين إذ أن الثابت أن أهل الذمة (اليهود والنصارى) لم يلزموا بالغيار في عهد النبي عليه الصلاة والسلام :

لمزيد من التفصيلات حول هذا الموضوع انظر : ابن قيم الجوزية : احكام أهل الذمة . ح ١ ص ٢٢ / ص ٢٦ ، ص ٢٣٦ ، الماوردي : الاحكام السلطانية ص ١٣٧ ، النويري : نهاية الأرب حـ ٨ ص ٢٣٤ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة حـ ٣ ص ١٦٥ ، Fischel « Jews in the economic.P.7.

علاقتهم برعاياهم من اليهود والنصارى فقد كانت سياسة الدولة تجاههم تتأرجح ما بين العطف عليهم من ناحية ، والاشتداد عليهم من ناحية أخرى .

وعمل أهل الذمة من اليهود والنصارى في الوظائف المالية والادارية في الدولة الاخشيدية. ووصل بعضهم الى مناصب خطيرة ، فقد استطاع اليهودي الشهير « يعقوب بن كلس » أن يحوز ثقة « كافور الاخشيدي » ، ولا بد أنه تولى وظيفة هامة تحمل معها السيطرة على كل الادارة المالية في الدولة[1] ، ولم يتردد « يعقوب بن كلس » في اعتناق الاسلام طمعا في تولي الوزارة مما أثار عليه حنق الوزير « جعفر بن الفرات » الذي قبض عليه بعد موت كافور ، ولكن ابن كلس اشترى حريته ببعض المال وهرب الى المغرب حيث التحق ببلاط المعز لدين الله الفاطمي ، ويقول ابو المحاسن بن تغري بردى ان ابن كلس كان « . . . اكبر اسباب حركة المعز وإرسال القائد جوهر الى الديار المصرية . . »[2] .

الدولة الفاطمية (٣٥٨ ـ ٥٦٤ هـ / ٩٦٩ ـ ١١٧١ م) :

فتح الفاطميون مصر سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) لكي يستمروا في حكمها فترة تزيد عن قرنين من الزمان انتهت بموت العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، والحقيقة أن أحوال اليهود والمسيحيين تغيرت في ظل الحكم الفاطمي تغيراً كبيراً . فقد ساهم اليهود والنصارى في الشؤون الادارية والاقتصادية والسياسية للبلاد بشكل لم يحدث في ظل اية دولة أخرى . وبغض النظر عن الظاهرة المؤقتة للاضطهادات التي حدثت أيام الحاكم بأمر الله الفاطمي ـ الذي عرف بشذوذ تصرفاته ـ فإن العصر الفاطمي يجب ان يؤخذ ككل باعتباره العصر الذهبي لأهل الذمة (يهودا ونصارى) .

ويبدو غريبا أن الدولة الفاطمية لم تتبع سياسة التسامح الديني تجاه المسلمين

---

(١) ابن سعيد المغربي . النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ٢١٥ ،تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكي : ص ١٧٢ / ص ١٧٣ ،
Fischel- Jews in the economic.pp 47 «51,Mann«The Jews«vol.I.P17

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة حـ ٤ ص ١٧٥ .

السنيين في الوقت الذي تمتع فيه أهل الذمة من اليهود والاقباط بمثل هذه الحريات ، لكن تفسير ذلك يبدو ممكنا في ضوء تفهمنا للحقيقة القائلة بأن غير المسلمين كانوا أداة الدولة الجديدة في إدارة الشؤون المالية ـ لاسيما ما يتعلق بالضرائب التي كانت محور العلاقة بين الحكام والمحكومين آنذاك ـ كما كانوا وسيلة الدولة في ابتزاز اموال المصريين تحت اسماء عديدة لضرائب متنوعة ومن ناحية أخرى فإن ادراك الفاطميين لأن هناك توتراً في العلاقات بينهم وبين المصريين بسبب الخلافات المذهبية من ناحية ، واعتماد الفاطميين على المغاربة وأهل الذمة في ادارة شؤون الدولة من ناحية أخرى جعل الحكومة الفاطمية تنقض وعودها بالتسامح ازاء المسلمين السنيين[1] .

وفي ظل هذه السياسة وصل بعض اليهود الى ارقى المناصب المالية والادارية في الدولة الفاطمية ولعل أشهرهم قاطبة « يعقوب بن كلس » الذي اعلن إسلامه في أيام كافور ، وحين عاد إلى مصر مع المعز لدين الله الفاطمي ، قلده الخراج « . . . ووجوه الاقوال جميعها والحسبة والسواحل والاعشار والجوالي والأحباس[2] وجميع ما يضاف إلى ذلك وما يطوى في مصر وسائر الأعمال . . . » ،وشاركه في تحمل أعباء هذه الوظيفة البالغة الاهمية يهودى آخر هو «عسلوج بن الحسن »[3] ، وقد أصبح يعقوب بن كلس فيما بعد أول وزير للدولة الفاطمية ، وذلك في عهد الخليفة « العزيز » .

ومن خلال المناصب الهامة التي تولاها اليهود أحرزوا من النفوذ والسطوة ما مكنهم من العمل لصالح إخوانهم في العقيدة كما ان بعضهم استغل نفوذه في

(١) يجد القارىء تفصيلات أكثر عن هذه العلاقة في كتاب المقريزي : اتعاظ الحنفا : ص ١٩٧ / ص ١٩٨ ، ص ٢٠١ .

(٢) هذه كلها أسماء ضرائب كانت الحكومة تفرضها على رعاياها ، وقد بقي بعضها حتى أيام المماليك ، ويمكن القارىء الذي يرغب في مزيد من المعلومات أن يراجع كتاب «ابن مماش» قوانين الدواوين ، وانظر أيضا حسنين ربيع : النظم المالية والادارية زمن الأيوبيين (مطبعة جامعة القاهرة) .

(٣) المقريزي : اتعاظ الحنفا : ص ١٩٦ / ص ١٩٧ .

الاساءة إلى المصريين المسلمين مما جعل هؤلاء يضجون بالشكوى بين الحين والآخر ، وتمدنا المصادر التاريخية بالوقائع التي تؤكد صحة هذا القول نسوق منها بعض الأمثلة :

كتبت إمرأة الى العزيز تقول « . . . بالذي اعز اليهود بمنشا ، والنصارى بابن نسطورس وأذل المسلمين بك ألا قضيت أمري . . . » مشيرة بذلك إلى نفوذ منشا اليهودي وابن نسطورس المسيحي اللذين توليا مقاليد الأمور بعد موت الوزير يعقوب بن كلس ، وعقد الخليفة مجلساً للتحقيق انتهى بالقبض على اليهودي والمسيحي ومصادرة أموالهما ، ولكن الأمور لم تلبث أن عادت لسابق سيرتها كما اطلق سراح ابن نسطورس وتولى الوزارة بفضل تدخل زوجة العزيز المسيحية[1] كما تقول المصادر التاريخية ، وإن كنا نعتقد أن السبب الرئيسي هو عدم قدرة الدولة على الاستغناء عنهم لادارة شؤونها المالية ، وهو الأمر الذي تمرس فيه أهل الذمة منذ استخدمهم المسلمون غداة الفتح .

وكانت أم الخليفة « المستنصر » أمة سوداء عند تاجر يهودي هو « ابو سعد ابراهيم بن سهل التستري » الذي تولى بفضل مساعيها ديوان الخليفة ، فميز اليهود وانحاز اليهم حتى انتهى الأمر بقتله سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٧ م)[2] .

ونستطيع من خلال وثائق الجينيزا التي نشرها Mann أن نتعرف على أهداف اليهود من وراء التحاقهم بخدمة الدولة ، إذ يقرر كاتب إحدى الوثائق التي يرجع

---

(١) ابو المحاسن · النجوم الزاهرة حـ ٤ ص ١٧٥ ، سرور : مصر في عهد الدولة الفاطمية ص ٥٥ ، Fischel« Jews P.64 .

(٢) قد تدلنا الابيات التالية (اوردها ابن سعيد المغربي : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة ص ٣٥٨ السيوطي: حسن المحاضرة حـ ٢ ص ١٥٢ / ص ١٥٣ ، المقريزي : الخطط حـ ١ ص ٤٠٥ .) على مدى انزعاج الناس من نفوذ اليهود والنصارى وتحكمهم إذ نجد الشاعر يدعو الناس ـ في تهكم مرير ـ الى اعتناق اليهودية طالما أنها هي الوسيلة المضمونة الى النفوذ والسلطان :

يهود هذا الزمان قد بلغوا   غاية آمالهم وما ملكوا
العز فيهم والملك عندهم   ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر أنى نصحت لكم   تهودوا قد تهود الفلك

تاريخها إلى القرن السادس الهجري (ق ١٢ م) وهو مسجون يصر على براءته أن ما فعله من أجل اليهود جميعا ـ قرائين وربانين[١] ـ معروف جيداً وأنه التحق بخدمة الحكومة « . . . لكي يكسب عيشه ويفعل خيراً لاخوانه في العقيدة في الوقت ذاته[٢] . . . »

ويتضح من وثيقة اخرى أن عداوة وتنافساً قد اشتعلا بين اليهود والمسيحيين من اجل الفوز بوظائف الدولة ، والوثيقة عبارة عن خطاب مرسل إلى يهود القسطنطينية (مما يدل على أن يهود مصر كانوا على صلة بيهود عالم البحر المتوسط على الأقل في تلك الفترة) ويقرر كاتب الخطاب أنه طرد من وظيفته بسعاية أحد النصارى المقربين للوزير[٣] ، وهكذا نحصل من الوثائق على صورة للصراع المرير بين اليهود والمسيحيين في مصر من أجل الفوز بوظائف الدولة التي اعتمدت عليهم في ادارة جهازها المالي ـ وهومحور العلاقة بين الدولة ورعاياها آنذاك ـ ولكن مصالح اليهود والنصارى المشتركة لم تمنع كلا منهما من شن حرب مريرة ضد الآخر .

ورغم ان العصر الفاطمي يعتبر العصر الذهبي بالنسبة لليهود في مصر من جميع الوجوه إلا أنه يجدر بنا أن نشير الى ما حدث أيام الخليفة «الحاكم بأمر الله الفاطمي» باعتباره ظاهرة استثنائية في هذه الدولة ، فقد فرض عليهم عدة قيود خاصة بالملابس والمظهر والنشاط الاجتماعي كما خيرهم في مرحلة لاحقة بين اعتناق الاسلام أو الخروج من مصر ، وصادر أموال المسيحيين واليهود ، وهدم بعض كنائسهم واستولى على اوقافهم كما أحرق حي اليهود في حارة الجودارية ، ونقلهم الى السكن في حارة زويلة حيث استمروا يقيمون هناك حتى نهاية عصر المماليك على الأقل . . . إلا أن هذه الاجراءات جاءت ضمن مجموعة من الاوامر الشاذة التي اصدرها الحاكم مثل الأمر بسب الصحابة على جدران المساجد ، ومنع بعض المشروبات والاطعمة ، ومنع خروج النساء واغلاق محلات الاساكفة حتى لا يصنعوا لهن الاخفاف ، والحقيقة أن ا لمصريين جميعا ـ بشتى دياناتهم ـ عانوا من

---

(١) سوف يرد الكلام تفصيلا عن طوائف اليهود في الصفحات التالية من هذا البحث .

(٢) Mann«The Jews«vol.I.P.219.

(٣) ibid «vol.I.P.220

تصرفات ذلك الخليفة الغريب الأطوار ، ومن ثم يصبح من نافلة القول أن نفسر ذلك في ضوء التعصب الديني .

وحين بدأت الاضطهادات في عهد الحاكم تحول كثيرون الى الاسلام ، بينما فر آخرون إلى خارج البلاد ، ولكن الخليفة الحاكم أصبح اكثر تسامحاً في أخريات أيامه وسمح لكل الذين اعتنقوا الاسلام مكرهين بالعودة إلى دياناتهم الاصلية ، وفي سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) سمح الخليفة « الحافظ » لكل من اعتنق الاسلام كرها أيام الحاكم أن يعود إلى دينه فعاد كثيرون الى اليهودية والمسيحية[١] .

ونستطيع أن نقرر اعتماداً على وثائق الجينيزا أنه في بداية عهد الخليفة الحاكم كان اليهود بمنأى عن نزوات ذلك الخليفة ، بل إن الوثائق تمتدحه بسبب « . . . إصلاحاته العظيمة . . . » ، وثمة دليل ايجابي على ان معابد اليهود لم ينلها التدمير في بداية عصر الحاكم بأمر الله يتمثل في وثائق تلك الفترة التي يرد فيها ذكر معابد اليهود العظيمة في الفسطاط حيث كان اليهود يجتمعون للاحتفال بإحدى المناسبات[٢] .

الايوبيون والمماليك :

يمكن القول بصفة عامة ـ أن العصر الايوبي (٥٦٦ ـ ٦٤٨ هـ / ١١٧١ ـ ١٢٥٠م) كان عصراً مريحاً لأهل الذمة من اليهود والنصارى ، ويبدو أن اليهود والنصارى قد عملوا في وظائف الدولة والشؤون المالية والادارية إذ أعاد السلطان الناصر صلاح الدين الايوبي الموظفين الاقباط الذين كان اسد الدين شيركوه قد طردهم[٣] .

---

(١) تاريخ ابن الراهب : ص ١٣٥ / ص ١٣٦ ، يحيى بن سعيد الانطاكي : ص ١٩٥ ، المقريزي : الخطط حـ ٢ ص ٢٨٥ ، ص ٢٨٨ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة : حـ ٤ ص ١٧٨ ، ابن اياس : بدائع الزهور حـ ١ ص ٥٠ / ص ٥١ .

(٢) Mann«The Jews.vol.I.PP.33-36.

(٣) ابن أيبك الدواوار : الدر المطلوب في اخبار بني أيوب : ص ٣٩ / ص ٤٠ .

وقد عمل بعض الاطباء اليهود في البلاط الايوبي.ولعل أشهرهم هو « موسى بن ميمون » الذائع الصيت والذي كان ذا ثقافة متعددة الجوانب ، وقد اسلم موسى أثناء تواجده في بلاد المغرب وحفظ القرآن الكريم ، كما كان رئيس الجماعة اليهودية بجانب عمله الرسمي كطبيب في البلاد وكان « موسى بن ميمون » على حد تعبير مصادر العصر « . . . أوحد زمانه في صناعة الطب . . . » ، كما كان على دراية جيدة بالفلسفة والف عددا من الاعمال الثقافية الهامة . . . وخدم صلاح الدين وابنه ثم ارتد إلى اليهودية بعدما اذن له صلاح الدين الأيوبي بذلك[1]وخلفه ابنه ابراهيم في رئاسة اليهود كما خدم السلطان الكامل الأيوبي[2] .

والواقع أن قلة معلوماتنا عن علاقة الدولة الايوبية باليهود من رعاياها يرجع بالدرجة الأولى الى ما انغمست فيه تلك الدولة من الحروب المتواصلة ضد الصليبيين ، مما جعل جهود السلاطين ـ خصوصا الناصر صلاح الدين ـ تتجه بصفة أساسية نحو ميدان الجهاد ضد الخطر الخارجي .

وفي عصر سلاطين المماليك (٦٤٨ هـ ـ ٩٢٢ هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٥١ م) اختلفت طبيعة العلاقات بين الدولة ورعاياها من أهل الذمة في عصر المماليك عنها في العصور السابقة بشكل أو بآخر ؛ فلم تكن النظرية السياسية لدولة المماليك قائمة على مبدأ وراثة الحكم . كما أنها لم تستند الى مبدأ التفويض الشعبي أو انتخاب السلطان وفقاً للمبدأ الديموقراطي ، بل قامت على أساس التنافس بين الامراءعلى السلطة التي يفوز بها اقواهم واقدرهم على الايقاع بالآخرين ؛ ومن ثم اتخذت العلاقة بين سلاطين المماليك ورعاياهم مسارين اساسيين يستند **أحدهما** إلى الدعاية الدينية المتمثلة في إحياء الخلافة العباسية من جهة ، وطبقة رجال الدين « المتعممين » من جهة أخرى ، ويستند **ثانيهما** ـ إلى قوة السلطان الذاتية المتمثلة في مماليكه واجناده وقدرتهم العسكرية .

وهكذا تحددت معالم السياسة الداخلية لسلاطين المماليك أو بالأحرى تحددت

---

(١) ابن أبي اصيبعة : طبقات الأطباء ص ٥٨٢ / ص ٥٨٣ .
(٢) المرجع السابق : ص ٥٨٤ ، Mann«The Jews« vol..I.PP.245« 47

ابعاد العلاقة بين دولة المماليك ورعاياها ومن بينهم اليهود بطبيعة الحال ، وقد حرص سلاطين المماليك على تقرير التزامهم العدالة والتسامح الديني تجاه رعاياهم من غير المسلمين عملا بتعاليم الدين الاسلامي من ناحية ، كما أنهم في بعض الأحيان مارسوا الضغوط على اليهود والمسيحيين ارضاء للمتعممين ذوي النفوذ الواسع آنذاك من جهة أخرى ومراعاة لمشاعر جماهير العامة من جهة ثالثة ، كما مارس السلاطين هذه الضغوط في بعض الأحيان إرضاء لنزعة دينية لديهم ورغبة في الظهور بمظهر حماة الدين الاسلامي ، وقد أثرت احداث السياسة الخارجية بشكل ما في العلاقة بين الدولة وأهل الذمة عموما ، ومن المعروف أنه لم تكن هناك دولة يهودية تتدخل لصالح يهود مصر ـ كما كانت تفعل الدول المسيحية ـ آنذاك . ولكن ذلك لم يمنع تأثر أولئك اليهود بالأحداث الجارية .

ويمكن التعرف على الموقف الرسمي لسلاطين المماليك تجاه رعاياهم من أهل الذمة ـ ومن بينهم اليهود طبعا ـ من خلال الوثائق الكثيرة التي خلفها لنا ذلك العصر ، فقد صدرت المراسيم عن السلاطين وكبار الأمراء ـ طوال عصر المماليك ـ تأمر لأهل الذمة « . . . أن تكون جهتهم مرعية على الدوام وذمتهم محفوظة بذمة الاسلام . . . » وذلك « . . . عملا بحكم الملة الاسلامية وشريطة الشريعة المحمدية . . . » لأنهم « . . . أهل ذمة وكتاب . . . »[1] وتوضح لنا بعض الوثائق الأخرى التي حفظتها لنا المصادر التاريخية اهتمام الدولة برعاياها من اليهود والنصارى « . . . فنحن بحمد الله معتنون بمصالح الرعية وان اختلفت مللهم وآراؤهم ، وتفرقت مذاهبهم وأهواؤهم . . . »[2]

ومن الألقاب التي اسبغتها الدولة على رؤساء الطائفة اليهودية ـ كما جاءت بالوثائق الرسمية ـ يصبح الموقف الرسمي للدولة تجاه رعاياها اليهود اكثر وضوحا فقد اشتملت القاب رؤساء اليهود على ألقاب مثل (الشيخ . الجليل . الرئيس .

(١) مجموعة وثائق دير سانت كاترين : مراسيم السلاطين بيبرس رقم ١٦ ، وقلاوون رقم ٢٢ ، وبرقوق رقم ٢٩ ، وفرج رقم ٤٦ ، والمؤيد شيخ رقم ٤٩ .

(٢) ابن عبد الظاهر : تشريف الايام والعصور : ص ٢١٦ / ص ٢١٧ (توقيع برئاسة اليهود) .

الكافي . المقرب . الحكيم . تاج الحكمة . ثقة الملوك والسلاطين . . الخ[1] . ويبدو من هذه الالقاب أنها تحمل دلالات لا يخطئها الباحث على احترام الدولة في موقفها الرسمي لهؤلاء الزعماء الروحيين للجماعة اليهودية .

وكان أولئك الرؤساء هم واسطة العقد في العلاقة بين الدولة ورعاياها من اليهود ، وقد اعتبرتهم الدولة موظفين رسميين بدليل أن تواقيع تعيينهم[2] ، كانت تصدر عن ديوان الانشاء ، كما كانت الوصايا التي تصدر بعد التعيين [وهي بمثابة النشرات الادارية التي تحوي تعليمات بشأن الواجبات الوظيفية في مصطلحنا المعاصر] تصدر عن ديوان الانشاء أيضا . صحيح أن الطائفة كانت تختار رئيسها ليقوم بتنظيم العلاقة بينها وبين الدولة ، فضلا عن تنظيم العلاقات بين أفراد الطائفة نفسها داخل اطار الدولة ولكن التوقيع (قرار التعيين) كان يصدر عن الدولة تثبيتا لهذا الانتخاب ، واعترافا من الدولة به ، كما كانت التواقيع تبدأ عادة بالتقرير المعتاد عن موقف الدولة العادل من أهل الذمة ثم موقفها من هذه الطائفة أو تلك لما لها من مكانة وفضل لدى الدولة ثم يبدأ التوقيع في تحديد مهام الوظيفة .

وانقسم يهود مصر الى طوائف ثلاث هي : الربانون ، والقرّاؤون ، والسامرة ، وكانت رئاسة اليهود لواحد من الربانيين ـ اكبر طوائف اليهود الربّانين

---

(١) ابن عبد الظاهر : تشريف لأيام والعصور : ص ٢١٦ / ص ٢١٧ (توقيع برئاسة اليهود) ، القلقشندي ، اصبح لاعشى حـ ٩ ص ٢٦٥ Boswarth«christian and Jewish dignitaries«part. II P205

وقد ذكر القلقشندي (ص ٩ ص٢٦٥ وما بعدها) أن اعلى القاب أهل الذمة من اليهود والنصارى كان «الحضرة» ثم « حضرة الشيخ » ثم « الشيخ » مجردا عن الحضرة .

(٢) « توقيع » وجمعه « تواقيع » معناها الاساس في اللغة هو وضع خاتم أو شعار او علامة في اسفل وثيقة رسمية وفي العصر الفاطمي كان اصطلاح « علامة » مستخدما في مصر وبلاد المغرب ، بينما استخدم المشارقة اصطلاح « توقيع » الذي لم يلبث أن عم تدريجيا ليكتسب معنى اصطلاحيا لمنشور اداري صادر عن السلطان ويحتاج الى توقيعه أو علامته أو اليهما معا ـ انظر القلقشندي : صبح الاعشى حـ١١ ص ٣٨٥ ، وانظر كذلك : Boswarth«chriet.and Jewish dignitaries«Part. II pp«199«200.

آنذاك ـ يتمتع بحق الاشراف على الطوائف الثلاث « . . . في القاهـرة ومصر وسائر الديار المصرية على عادة من تقدمه . . . »[1] ، وكان على رئيس الجماعة اليهودية بطوائفها الثلاث تنظيم العلاقة بين اليهود والدولة فضلا عن تنظيم شؤونهم الدينية والاجتماعية ، كما تحتم عليه هو وأبناء طائفته الدعاء للدولة ، ومن خلال احدى الوثائق نستطيع تحسس العلاقة بين الدولة ورعاياها من اليهود في هذه العبارة « . . . هذه وصايانا لك ولهم ، فقل لهم هذه موهبة الدولة واحسانها اليكم ولطفها بكم وعاطفتها عليكم . . . » .

ورغم أن رئيس اليهود كان يتمتع بسلطة الاشراف على طوائف اليهود كما سبق القول فان لدينا وثيقة تفيد أنه كان للسامرة رئيس مستقل رغم قلة عددهم[2] ، ويقرر ترتيون أنه اصبح لكل من القرائين والسامرة رئيس مستقل ابتداء من (٨٦٠ هـ ـ ١٤٥٥ م)[3] ، ولكن وصية رئيس السامرة التي اوردها ابن فضل الله العمري ـ الذي كان معاصراً للناصر محمد بن قلاون ـ والقلقشندي (ت ٨٢١ هـ) لا بد وان تكون قبل التاريخ الذي اورده « ترتون » ، فضلا عن أن السخاوي يذكر اسم رئيس السامرة ضمن أسماء رؤساء اهل الذمة الذين استدعوا لمجلس السلطان (٨٤٦ هـ / ١٤٤٢ م)[4] ومن غير المعقول استدعاء رئيس السامرة أو رئيس القرائين اذا كان رئيس الربانيين ما يزال مسؤولا عن الطوائف الثلاث مما يرجح أن يكون منصب رئيس السامرة قد عُرفَ قبل هذا التاريخ ، وعلى كل حال فقد كان رئيس السامرة مكلفا « . . . بلم شعث طائفته مع قلتهم ، وتأمين

---

(١) انظر ابن عبد الظاهر : تشريف الايام والعصور ص ٢١٦ / ص ٢١٧ ، ابن فضل الله العمري : التعريف ص ١٤٢ ، ص ١٤٣ ، القلقشندي صبح الاعشى حـ ١١ ص ٣٨٥ / ص ٣٨٨ ، ص ٣٩٠ ، تاريخ ابن الفرات حـ ٨ ص ١٨ / ص ٢٠ حيث توجد وثيقة عبارة عن توقيع برئاسة اليهود لابن الحسن صمويل المتطيب تاريخها ٦٨٤ هـ كما توجد وثيقة بها وصية لرئيس اليهود)

(٢) ابن فضل الله العمري : التعريف ص ١٤٤ (وصية رئيس السامرة) .

(٣) تريتون : أهل الذمة ص ١٠٢ .

(٤) السخاوي : التبر المسبوك ص ٣٦ .

سربهم . . . » ومراعاة شؤونهم الدينية والاجتماعية .

وهكذا حددت الوثائق دور قادة أهل الذمة كواسطة بين ابناء طوائفهم وبين الدولة وقد اكدت الحوادث هذا الدور حين حدث ٨٤٦ هـ / ١٤٤٢ م أن استدعى السلطان رؤساء طوائف أهل الذمة لأمور تتعلق بطوائفهم وحدد لهم الشروط والقيود التي فرضها مرسوم الناصر محمد سنة ٧٠٠ هـ[١] ـ سنة ١٣٠١ م .

ومن المعروف أن الجزية أحد الشروط الأساسية في عقد الذمة، وبمضي الزمن أصبحت الجزية تعرف باسم الجوالي[٢] ، وقد انقسمت في عصر المماليك الى قسمين **احدهما** : يجبى من القاهرة والفسطاط ، **وثانيهما** : يجبى من الاقاليم وتولى جبايتها في العاصمة موظف هو « مباشر الجوالي » الذي كان السلطان المملوكي يعينه بمقتضى توقيع شريف ويعاونه مجموعة من الموظفين كما تولاها موظف آخر في الاقاليم ، ونستطيع من خلال كتابات المقريزي والقلقشندي ، والنويري أن نشير الى مراحل تطور الجوالي حتى النصف الأول من القرن التاسع الهجري (١٥ م) :

فحتى اوائل القرن الثامن الهجري (ق ١٤ م) كانت حصيلة الضرائب المعروفة باسم الجوالي تورد قلماً مستقلاً بذاته في حسابات الدواوين وتؤدى سنويا[٣] ـ أما عن طريقة جباية هذه الضريبة فقد كان مباشر الجوالي يعد قوائم بأسماء اليهود الربانيين والقرائين ثم يثني بالسامرة ، ويثلث بالنصارى ، وفي تلك السجلات كانت الأسماء ترتب ابجديا لتسهيل مهمة دلك الموظف فاذا أخذت

---

(١) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٢) الجوالي ومفردها « جالية » تطلق على أهل الذمة وذلك لأن عمر بن الخطاب اجلاهم عن جزيرة العرب ثم لزم هذا الأمر كل من لزمته الجزية وان لم يجلوا عن اوطانهم ـ انظر المقريزي : السلوك حـ ١ ص ٣٨٤ هامش ١ كما عرفها القلقشندي بأنها « ما يؤخذ من اهل الذمة من الجزية المقررة على رقابهم في كل سنة ـ انظر صبح الاعشى حـ ٣ ص ٤٦٢ ، وقد استخدمت في عصر المماليك بهذا المعنى .

(٣) المقريزي : الخطط حـ ١ ص ١٠٢ / ص ١٠٣ .

الجالية (ضريبة الجزية) من أحدهم كتب بها « وصولا » (ايصالاً) وشطبت عن اسم من أداها واذا عاد احد النازحين الى بلده ولم يكن قد ادى الجزية اخذت منه ـ اما اذا كان قد سددها ، واحضر الايصال الدال على ذلك نقل المبلغ الى حساب تلك البلد[1] ، وكان على رئيس السامرة ورئيس اليهود ان يكتبا سنويا الى مباشر الجوالي قوائم عرفت باسم « الرقاع » باسماء المقيمين في البلاد من ابناء طوائفهم ، وقد عرف هؤلاء باسم « الرواتب » ، كما عرف الوافدون باسم « الطوارىء » كما كانت هذه « الرقاع » تحوي ايضا اسماء الصبية تحت اسم « النوابت » وتتحدد في آخر الرقاع اسماء من اهتدى بالاسلام أو مات أو سافر واسم البلد الذي سافر اليه ، وكانت تلك الرقاع تعتبر بمثابة اقرار ممن صدرت عنه بصحة مضمونها وفي بعض الاحيان كان يقوم بتلك المهمة من اليهود شخص يسمى « حاشر اليهود » الذي يعرف اسماء اليهود الواردين في الديوان[2] .

وكانت حصيلة الجوالي تورد الى ديوان الخاص السلطاني حتى سنة ٧١٥ هـ حين أعيد توزيع الاقطاعات على أمراء المماليك وفقا لقاعدة جديدة وذلك فيما عرف باسم « الروك الناصري » (وهي عملية فك وتعديل زمام الاراضي الزراعية) ـ ونتيجة لذلك قلت ايرادات تلك الضريبة إلى حد كبير بسبب تفرقها في الاقطاعات ، إذ صار يهود كل بلد يدفعون ضرائبهم لمقطع تلك البلد ، وصار أهل الذمة عموما « . . . يتنقلون في القرى ، ولا يدفعون من جزيتهم إلا ما يريدون فقل متحصل تلك الجهة بعد كثرته . . »[3] ـ واضطر المقطعون الى مصالحة من باقطاعاتهم من اليهود والنصارى على جزء من الضريبة ـ وانخفض ما يدفعه الفرد في هذه الضريبة من ستة وخمسين درهما قبل هذا الروك الى اربعة

---

(١) تقدم لنا وثائق الجينيزا الدليل على أن أي يهودي كان عليه أن يحمل معه البراءة (الايصال) الذي يوضح انه سددقيمة هذه الضريبة عن نفس السنة اذا رحل عن محل اقامته ولو لفترة قصيرة Rabie«the financial system of Egypt«P.110

(٢) النويري : نهاية الأرب حـ ٨ ص ٢٤٠ / ص ٢٤١ .

(٣) المقريزي : الخطط حـ ١ ص١٠٦ . وقد اتهم المعاصرون الاقباط بتدبير ذلك حتى تتاح الفرصة أمام أهل الذمة للافلات من دفع تلك الضريبة .

دراهم أو نحوها[1] بينما يقدر القلقشندي أن اعلى قيمة لها بلغت خمسة وعشرين درهما بينما بلغ حدها الادنى عشرة دراهم[2] وتؤكد احدى وثائق مجموعة « أوراق فيينا » Vienna Papers هذه الحقيقة إذ تذكر الوثيقة ان احد دافعي ضريبة الجوالي رفض دفعها لموظفي الأمير صاحب الاقطاع وتجرأ على مقاومتهم[3] .

ويبدو أن الجوالي كمورد من موارد الدولة تناقصت الى حد بعيد بعد القرن الثامن الهجري (١٤ م) وقد عزا المقريزي ذلك الى كثرة تحول الذميين الى الاسلام في تلك الفترة[4] . وفي رأينا أن التخلي عن مركزية تحصيل تلك الضريبة ساهم أيضاً في قلة مواردها .

اما حصيلة الجزية (الجوالي) المستخرجة من يهود ونصارى القاهرة والفسطاط ، فكان جزء منها يحمل الى بيت المال ، ويفرق الباقي بين رواتب القضاة وأهل العلم ، بينماكانت حصيلة جوالي الاقاليم تعطى لصاحب الاقطاع الذي يقع البلد في نطاقه[5] .

ونستدل من بعض الروايات على أن الجوالي كانت تؤدى احيانا مصالحة عن مجموع أهل الذمة من اليهود والنصارى بمقتضى اتفاق محدد بغض النظر عن اختلاف درجة ثراء الافراد ، فقد أمر السلطان المؤيد شيخ أن يؤدي اليهود والنصارى ضريبة الجوالي عن كل فرد على حدة سنة ٨١٥ هـ / (سنة ١٤١٢ م) كما الزمهم بدفع فرق قيمة الجوالي عن السنوات الماضية ، واعيد فرض الجوالي على كل فرد منهم بسبب اختلاف احوالهم (فالغني اربعة دنانير ، والمتوسط اثنان ،

---

(١) النويري : نهاية الأرب حـ ٣٠ ص ٣١١ (مخطوط)

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى حـ ٣ ص ٤٦٢ / ص ٤٦٣ .

(٣) يحتمل ان تكون هذه الوثيقة من عصر الناصر محمد بعد سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) أي بعد الروك الناصري - انظر Rabie «The financial system» PP «110 «112

(٤) المقريزي : الخطط حـ ١ ص ١٠٦ .

(٥) القلقشندي : صبح الاعشى حـ ٣ سنة ٤٦٣ .

ودينار واحد للفقير) وتكرر ذلك الأمر ٨١٧ هـ (١٤١٤ م)[١] ويبدو ان ذلك لم يستمرطويلا بدليل ما سبق ذكره من أقوال القلقشندي والنويري .

وفي بعض الاحيان كان اليهود يتعرضون لابتزازات مالية من جانب الدولة ، فقد حدث اثناء الفوضى الناتجة عن فرار السلطان الظاهر برقوق سنة ٧٩١ هـ أن قبض على بطرك النصارى ، ورئيس اليهود والزما بمبالغ من المال[٢] .

وفي بعض الأحيان كانت الدولة تلجأ الى نظام طرح البضائع على رعاياها ومن بينهم اليهود بطبيعة الحال ويعني هذا إلزام الرعايا بشراء بضائع من الدولة مقابل اثمان تحددها لهم . كما كانت الدولة تلجأ احيانا لفرض مبالغ من المال على رعاياها جميعا ـ دون تمييز بين المسلمين وغير المسلمين ـ من اجل تجهيز الجيوش للقتال كما حدث سنة ٨٩٣ هـ (١٤٨٧ م) حين ألزم السلطان قايتباي بطرك النصارى ورئيس اليهود بمبالغ من المال لتجهيز الجيش لقتال العثمانيين « . . . وهذا اول فتح باب المصادرات للناس . . . » كما صادر تجار الفرنج والمغاربة « . . . وغير ذلك من اعيان الناس . . . » فضلا عما اخذه من أجرة الأملاك والاوقاف والمدارس والبيمارستان . وفي سنة ٩٠١ هـ (١٤٩٥ م) صادر قايتباي اليهود والنصارى مرتين[٣] كما فرض ابنه الناصر محمد ضرائب جديدة « مظالم » على جميع أفراد الرعية وموظفي الدولة والقضاة والتجار وشملت اليهود والنصارى وجمعت تلك الاموال « . . . بالضرب والترسيم والحبس . . . »[٤] .

ويتضح من الامثلة السابقة أن متاعب يهود مصر المالية في عصر المماليك كانت تتم في نطاق اجراءات مالية عامة تشمل كل فئات واقسام الرعية أحيانا بسبب

---

(١) المقريزي : السلوك حـ ٤ ص ٢٤٧ ، ص ٢٨٩ ، العيني : عقد الجمان : حوادث سنة ٨١٥ هـ ، سنة ٨١٧ هـ ، ابن حجر ، أنباء الغمر حـ ٣ ص ٣٨ / ص ٣٩ .

(٢) المقريزي : السلوك حـ ٣ ص ٦٧٥ / ص ٦٧٧ وما بعدها ، تاريخ ابن الفرات حـ ٩ / ق ٢ ص ١٦١ / ص ١٦٢

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور حـ ٢ ص ٢٤٩ / ص ٣٠٢ .

(٤) المرجع السابق حـ ٣ ص ٣٤٣ .

استعداد الدولة لقتال اعدائها في الخارج ورغبتها في تغطية نفقات تلك الحملات لاسيما في اواخر عصر المماليك وما شهده من تدهور اقتصادي ، واحيانا اخرى بسبب الفتن الداخلية والصراع على الحكم ، وكان ذلك كله في الواقع تعبيرا عن علاقة أولئك المماليك بالمصريين جميعا والتي اتسمت بالقسوة والتطرف في ابتزاز اموال الرعايا من المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء .

ومن الناحية النظرية كان على أهل الذمة الالتزام ببعض قيود الملابس فيما عرف باسم « الغيار » والزم اليهود باللون الاصفر ، وتحدد اللون الاحمر للسامرة على أن تلبس المرأة اليهودية او السامرية إزاراً من نفس اللون وخفين احدهما أبيض والآخر أسود ، كما حرم عليهم ـ نظريا ـ ركوب الخيل والبغال النفيسة وحمل السلاح والتقلد بالسيوف وكان على المحتسب أن يراعي التزامهم بذلك[1] .

وتوضح لنا الوثائق ان سلاطين المماليك كانوا يأمرون رؤساء أهل الذمة بإلزام اتباعهم بهذه القيود التي فرضت لتمييزهم عن المسلمين[2] ، كما اعتبرها المعاصرون علامة على الذلة والهوان ، ويمكن أن نستنتج من تعدد المراسيم الصادرة عن الدولة لالزام اليهود والنصارى بتلك القيود أن الالتزام بها كان يخف تدريجيا بمضي الوقت حتى ينسى أمرها لتتجدد بعد فترة ، وطبيعي أن تلك المراسيم كانت تصدر لتصحيح اوضاع قائمة بالفعل (أي عدم تقيد اليهود والمسيحيين بتلك القيود) وإلا ما هو الداعي إلى اصدار مراسيم لفرض التزامات متبعة بالفعل ؟

وفي سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠١ م) أصدر السلطان الناصر محمد بن قلاون [سلطنته الثانية] مرسومه الشهير الذي جدده السلطان الصالح صالح سنة ٧٥٥ هـ ، وقد حفظ لنا القلقشندي هذه الوثيقة الهامة التي الزمت « . . . جميع طوائف اليهود والنصارى والسامرة بالديار المصرية والبلاد الاسلامية المحروسة واعمالها

---

(١) ابن الاخوة معالم القربة في طلب الحسبة : ص ٤١ ، ص ٤٢ ، ابن بسام : نهاية الرتبة ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٢) ابن فضل الله العمري : ص ١٤٤ / ص ١٤٥ ، ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ص ٢١٦ / ص ٢١٧ ، القلقشندي صبح الأعشى جـ ١١ ص ٣٩٢ .

حكم عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما مضى من اهل ملتهم . . . »[1] ، وكان السبب في اصدار هذاالمرسوم - كما جاء في الوثيقة نفسها أن اليهود والمسيحيين لم يلتزموا بالقيود المفروضة عليهم « . . . وخرجوا عن العهود في تحسين الزنار والشعار . . . » وهو ما أيده المقريزي بقوله إن اليهود والنصارى « . . . قد تزايد ترفهم بالقاهرة ومصر وتفننوا في ركوب الخيل المسوّمة ، والبغلات الرائعة بالحلي الفاخرة ، ولبسوا الثياب السرية ، وولوا الاعمال الجليلة . . . » ، مما أثار حنق المعاصرين من مجتمع طبقي ربط مظهر الفرد بالطبقة التي ينتمي اليها ربطا لا يجوز العدول عنه .

وقد صدر المرسوم بعد الحصول على فتاوى الفقهاء ، وهو أمر سنلاحظه في كل تصرفات سلاطين المماليك تجاه اليهود والمسيحيين ، تمسكا بالمظهر الديني وحرصا على الاستناد على حكم شرعي أو فتوى في اي اجراء مماثل ، واكتسب ذلك المرسوم شهرة واسعة النطاق رغم انه لم يكن الوحيد من نوعه ، كما أنه لم يكن اسوأ تلك المراسيم التي كانت لهجتها دائما اقوى من تطبيقاتها ، والتي كانت ما تلبث ان تختفي تدريجيا في زوايا النسيان بدليل ما ورد في كتابات المعاصرين من أنها لم تكن ملتزمة في كثير من الاحيان[2] .

وتكررت حوادث فرض هذه القيود طوال عصر المماليك ، مما يؤيد ما افترضناه من قبل من أن تلك المراسيم كانت تصدر لتصحيح اوضاع قائمة بالفعل ، وهو ما يؤكد بالتالي وجود التجاوز بشأن تلك القيود ومدى التزام أهل الذمة بها .

وقد احتل اليهود مكانهم في الجهاز الاداري للدولة بجانب النصارى ، ورغم كل المحاولات التي بذلت فإن الدولة لم تستطع الاستغناء عن وجود أهل الذمة في الجهاز الاداري للدولة وفي دواوين الأمراء ، في الوقت الذي فزع فيه المعاصرون من نفوذ اليهود والنصارى في الجهاز المالي والاداري للدولة فاتهموهم بأنهم تحكموا

---

(١) انظر نص المرسوم في صبح الاعشى حـ ١٣ ص ٣٧٨ / ص ٣٨٧ .

(٢) المقريزي : السلوك حـ ٢ / ق ٣ ص ٩٢٣ / ص ٩٢٥ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين : حوادث سنة ٧٥٤ هـ

في رقاب المسلمين ، واستخدموا نفوذهم في « . . . دفع من يتعرض لهم . . . » كما اتهموهم بشرب الخمر والزنا بالمسلمات وغير ذلك[1] .

ورغم المعارضة الشديدة - والتي كانت في حد ذاتها دليلا واضحا على ان اهل الذمة تولوا وظائف هامة في الدولة - فقد استمر المسيحيون واليهود في تولي وظائف الدولة بصفة شبه مستمرة بدليل كثرة المراسيم التي كانت تصدر بين الحين والحين بطردهم من تلك الوظائف .

ويبدو أن نشاط اليهود الأساسي قد تركز في الصيرفة ، كما عمل بعضهم بالترجمة فقد ذكر « بيروتافور » الذي زار مصر أيام برسباي أن مترجم السلطان كان يهوديا ثم اسلم وغير اسمه من « حايم » الى « ضايم »[2] كما أن متولي دار الضرب أيام السلطان « الغوري » كان يهوديا هو المعلم « يعقوب »[3] إلا أن هذا لا يعني ان اليهود لم يعملوا في الجهاز الاداري فقد كانت المراسيم تصدر بطرد اليهود والنصارى جميعا من الدواوين .

وقد تأثرت أحوال اليهود والنصارى بأحداث السياسة الخارجية وعلاقة دولة المماليك بالقوى السياسية الخارجية المعاصرة التي اثرت سلبا أو إيجابا على علاقة الدولة برعاياها من أهل الذمة ، وكان اليهود محل اهتمام اقل من جانب الدولة بسبب قلة عددهم ، وقد اثبتت الدراسات المعتمدة على وثائق الجينيزا أن يهود مصر آنذاك كان عددهم ضئيلا بالفعل[4] .

---

(١) الاسنوي : الكلمات المهمة : ص ٢٠ / ص ٢٢ .
(٢) رحلة طافور : ص ٦٥ (مترجم) .
(٣) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ٧ .
(٤) Boswarth« Christian and Jewish religions dignatries Part. I P. 66.

الفصل الثاني : اليهود في المجتمع المصري

شارك اليهود المصريون في احداث العصور الوسطى ونشاطاتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية مشاركة ايجابية في معظم الأحوال، مما ينهض دليلا على أن اليهود آنذاك كانوا جزءا لا يتجزأ من المجتمع المصري يتأثرون بالاحداث الجارية عليه ، ويخضعون لنفس الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي خضع لها المجتمع ككل والتي شكلت ملامح الحياة في تلك العصور من ناحية ويؤثرون بقدر أو بآخر في مجريات الأمور وفي عادات وتقاليد المجتمع من ناحية أخرى وبغض النظر عن بعض الحالات التي تعرض فيها اليهود لبعض الضغوط أو القيود لسبب أو لآخر فإنهم في أغلب الأحوال قد مارسوا حياتهم اليومية بشتى جوانبها داخل اطار الحياة العامة للمجتمع المصري ككل حينئذ .

عصر الولاة :

ومن الناحية الاجتماعية فقد تركت المسائل الداخلية لطوائف أهل الذمة ـ ومن بينهم اليهود بطبيعة الحال ـ لتنظم بواسطة الرؤساء القانونيين لهذه الطوائف كما أوضحنا من قبل ووفقا لظروف كل جماعة ، ولكن ذلك لم يمنع من مشاركة اليهود في الحياة العامة للمجتمع ، وفيما يتعلق باللغة فمن المعلوم أن اللغة العربية أصبحت لغة البلاد الرسمية منذ عهد « الوليد بن عبد الملك » (٦٥ ـ ٨٥ هـ / ٦٨٤ ـ ٧٠٥ م) ـ إلا أن القبطية ظلت تستخدم إلى جانبها حتى العصر العباسي حين أصبحت العربية بمفردها لغة الوثائق الرسمية والقانونية ، ويؤكد ذلك أن الباحث في تاريخ تلك الفترة كثيرا ما يجد وثائق مدونة باللغات الثلاث Trilingual (العربية . اليونانية . والقبطية) ترجع إلى القرنين الأول والثاني

المهجريين كما أن اوراق البردى التي نشرها جروهمان تؤكد هذه الحقيقة[1] .

وفيما يتعلق باليهود فقد استخدموا لغتين احداهما العربية والأخرى العبرية ، والواضح أن اللغة العربية كانت هي لغة الحياة اليومية ، بينما ظلت العبرية مرتبطة إلى حد كبير بالتراث الديني والعقيدي لدى اليهود . وكان معظم الشعر اليهودي وقليل من النثر يكتب بالعبرية فيالوقت الذي كان معظم النثر وقليل من الشعر يكتب بالعربية ، وفيما عدا بعض التعبيرات العبرية الخاصة والمفردات العبرية التي وجدت طريقها الى اللغة العربية فقد استخدم اليهود العربية حتى في شروح التوراة ، والتعليق على التلمود بعكس يهود البلاد المسيحية الذين لم يستخدموا في كتاباتهم الدينية سوى العبرية ، وفي رأي بعض الباحثين ان السبب في ذلك يرجع الى أن الكتابة باللغة العربية في ذلك الوقت كانت هي الشيء الطبيعي والأقل جهداً ، كما أن اللغة في المؤلفات العلمية ـ في رأي هذا الباحث ـ لا تحمل مفهوما ايديولوجيا كما هو الحال في الابداع الفني مثل الشعر[2] ـ إلا أننا يجب أن نضع في اعتبارنا أن الأسباب المباشرة لتلك الظاهرة تكمن في حقيقة تسيد اللغة العربية في ذلك الحين من جهة ، ورغبة المؤلف في أن ينتشر لدى جمهور عريض من القراء من جهة أخرى .

ولدينا دليل قوي على تسيد اللغة العربية بين يهود مصر في تلك الفترة يتمثل في وثائق الجينيزا التي كتبت باللغة العربية ولكن في حروف عبرية ، أو كما وصفها

---

(١) انظر على سبيل المثال بعض قطع البردى التي أوردها جروهمان (حـ ١ ص ١١ ـ ٣٥) وهي ترجع الى عصر الوليد بن عبد الملك ما بين ١٩ شوال سنة ٨٦ هـ إلى ١٥ جمادى الثاني سنة ٩٩ هـ (سنة ٧٠٥ ـ ٧١٤ م) ، وكتبت هذه القطع بالعربية واليونانية معا ، كما اورد أيضا بعض قطع البردى غير المؤرخة مكتوبة باللغتين (حـ ١ ص ٣٩ ـ ص ٤٩) ، كما اورد وثيقة مكتوبة عدد سطورها ١٠١ سطراً موزعة ما بين العربية . اليونانية . والقبطية (حـ ٣ ص ٩١ وما بعدها) ـ لمزيد من التفاصيل انظر : سيدة كاشف · مصر في عصر الولاة : ص ١٤١ ، دانييل دينيت : الجزيه والاسلام ص ١٠ / ص ١١ من المقدمة .

(٢) IBraham S.Halkine«The Arab« Jewish Litrature«vol.I.PP 1116-46 ·

بعض الباحثين « . . . بالعربية اليهودية التي كانت لغة يهود مصر . ... »[1] .

ونسمع في ذلك الوقت عن بعض مشاهير المثقفين من اليهود مثل « ما شا الله (٧٧٠ ـ ٨٢٠ م) وهو فلكي ذائع الصيت يرجح أن يكون مصريا ، ويمكن القول إنه حوالى القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) كانت دراسة العبرية والأدب العبري قد ازدهرت في مصر مما مهد لظهور « سعديا الفيومي » المدرس الذائع الصيت فيما بعد[2] .

ويبدو أن العداوة التقليدية بين اليهود والمسيحيين فضلا عن تنافس افرادالطائفتين على الفوز بمناصب الدولة خلق توترا في العلاقة بينهما وهو ما تشير إليه المصادر القبطية التي ترجع لذلك العصر[3] . ولكن ذلك لم يمنع من قيام علاقات قوية وودية بالرعايا المسلمين في ظل ضمان حرية العقيدة ، وكسب العيش فضلا عن تأمين الارواح والأعراض . ومن ثم برزت أسماء كثير من اليهود في مجالات متعددة اهمها الطب .

الدولة الطولونية والدولة الاخشيدية

وشارك اليهود في الحياة الاجتماعية بشكل أو بآخر في العصر الطولوني ، وتمثلت تلك المشاركة بشكل قوي حين اشتد المرض باحمد بن طولون فأمر الرعية بالدعاء له ـ كما يحدث في صلاة الاستسقاء اذا هبط النيل ـ وخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بأناجيلهم ، بينما خرج صبيان المكاتب (الكتاتيب) بالالواح على رؤوسهم « . . . وخرج سائر العلماء والصلحاء ، وهم يدعون الله تعالى له بالعافية والشفاء . . . واستمروا على ذلك عدة أيام إلى أن مات . . . »[4]

وحين دخل الفاطميون مصر اودعت زوجة الاخشيد جواهرها لدى أحد

---

(١) Rabie (H.)«Financial System of Egypt:PP: 3-4

(٢) Mann«The Jews under the fatimids vol.I.PP«14«15.

(٣) ساويرس : سير البطاركة : مجلد ٢ حـ ١ ص ٣٢ ، ص ٣٣ .

(٤) البلوي : سيرة أحمد بن طولون : ص ٣٣٠ / ص ٣٣١ ، الكندي : الولاة والقضاة ص ٣٢١ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة حـ٣ ص ١٨ .

اليهود ، ولما ط . . به انكرها فسكته الى الخليفة المعز لدين الله الفاطمي الذي اعاد لها جواهرها[١] ، وربما يكون ذلك دليلا على مدى مشاركة اليهود في الحياة الاجتماعية في مصر عموما ، كما يدل من ناحية أخرى على أن اليهود كانوا يقومون في ذلك العصر بنفس الدور الذي تقوم به البنوك حاليا من عمليات الايداع وحفظ الأموال والمجوهرات .

وفي الجانب الثقافي برزت اسماء بعض اليهود الذين لمعوا وتفوقوا في ميادين مختلفة مثل الطبيب « موسى بن العازار » ت (٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م)[٢] كذلك ظهر من نوابغ اليهود ذلك المدرس الشهير « سعديا الفيومي » الذي ترجم التوراة الى العربية فضلا عما ألفه من كتب أخرى في شتى المسائل الدينية ، وقد رحل سعديا الى العراق في مرحلة لاحقة ، وربما يكون قد تولى رئاسة اليهود[٣] .

وقد استوطن مصر في تلك الفترة عدد كبير من اليهود العراقيين الذي قدموا تبرعات كثيرة للمدارس اليهودية في العراق آنذاك[٤] .

الدولة الفاطمية :

الواضح أن اليهود ـ مثل سائر أهل الذمة ـ مارسوا حياتهم الاجتماعية في العصر الفاطمي بشكل أفضل كثيرا من أية فترة أخرى ، فقد كتب أحد زوار القاهرة في العصر الفاطمي يصفها قائلا : « . . . واكثر ما يتعين بها اليهود والنصارى في كتابة الخراج والطب . . . والنصارى بها يمتازون بالزنار في اوساطهم واليهود بعلامة صفراء في عمائمهم ويركبون البغال ويلبسون الملابس الجليلة . . . »[٥] .

وتروي إحدى وثائق الجينيزا أنه حدث سنة ١٠١١ م أثناء تشييع جنازة أحد

---

(١) ابن تغري بردي · النجوم الزاهرة حـ ٤ ص ٧٨ .
(٢) ابن ابي أصيبعة : طبقات الاطباء ص ٥٤٤ / ص ٥٤٦ .
(٣) Mann«The Jews«vol.I.P.14.
(٤) Ibid«PP.14-15.
(٥) ابن سعيد المغربي : النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة : ص ٢٨ .

اليهود ان هاجمهم عامة المسلمين وقذفوهم بالحجارة ، وسارعت الحكومة بالقبض على بعض اليهود بسبب التهم الموجهة اليهم (لم يحدد ناشر الوثيقة طبيعة هذه التهم) وكاد أولئك اليهود أن يدفعوا حياتهم ثمنا لهذه التهم ، ولكن الحكومة اطلقت سراحهم في اليوم التالي ، فنظم اليهود مسيرة شكر الى بلاط الخليفة ، ثم توجهوا إلى معبدهم حيث أقاموا صلاة شكر وأصبح ذلك اليوم عيداً يحتفل به يهود مصر سنويا بين الثالث والخامس من شهر شيقاط (أحد شهورهم) كما اتفقوا على صيام ذلك اليوم الذي قبض فيه على اليهود[١] .

وفي المجال الثقافي ظهرت أسماء بعض اليهود الذين حازوا مرتبة عالية من الشهرة آنذاك منهم « الحقير النافع » الذي خدم الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي[٢] ، كذلك كان طبيبا الحافظ احدهما يهودي والآخر مسيحي . وطلب منهما الخليفة تحضير جرعة قاتلة لابنه الحسن خوفا من أن يقتله الجند ويمثلوا بجثته فرفض الطبيب اليهودي ، وقام المسيحي بتحضيرها ، وبعد مضي فترة من الوقت قتل الخليفة الطبيب المسيحي بينما كافأ اليهودي بترقيته إلى منصب رئيس أطباء البلاط[٣] .

وقد ظهر بعض الشعراء اليهود في مصر والشام إلا أن موضوعاتهم كانت تدور في غالبيتها في اطار ذاتي ، وسواء من ناحية العدد أو النفوذ فإن اليهود المصريين قد احرزوا مكاناً بارزاً بين أبناء ملتهم في سائر انحاء الدولة الفاطمية[٤] .

الأيوبيون والمماليك :

ذكر بنيامين التطيلي ـ الذي زار مصر أيام وزارة صلاح الدين للخليفة العاضد آخر الفاطميين على ما يرجح ـ أن من بين يهود القاهرة عدد كبير من كبار الاغنياء

---

(١) Mann«The Jews«vol.I.PP: 31-32.

(٢) ابن ابي اصيبعة . طبقات الأطباء ص ٥٤٩ .

(٣) المقريزي : الخطط ح ٢ ص ١٧ .

(٤) رحلة بنيامين التطيلي : ص ١٧٢ هامش ٥ . Mann«The Jews«vol.I.PP: 204-206.

والعلماء[1] ، وهو ما يدل على أن اليهود شاركوا في حياة المجتمع المصري آنـذاك دون قيود ، والواقع أن زعامة الطب المصري أيام الأيوبيين انتقلت إلى ايدي اليهود الذين اشتهر من بينهم عدد من الاسماء عمل بعضهـم في البـلاط أشهرهـم هو « موسى بن ميمون » الذي سبقت الاشارة إليه .

وفي عصر المماليك شـارك اليهود في بعض المناسبات ذات الطابع السياسي ، وكان اليهود يشاركون سائر المصريين التعبير عن رأيهم في تلك الاحداث ، ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما حدث حين اعاد السلطان الظاهر بيبرس احياء الخلافة العباسية في القاهرة ، وخرج للقاء الخليفة العباسي ابن القاسم أحمد حين قدم الى مصر سنة ٦٥٨ هـ فقد خرج اليهود ضمن طوائف المصريين الأخـرى يحملـون التوراة[2] وحين قتل الأمير سنجر الشجاعي سنة ٦٩٣ هـ انتابت الناس مشاعـر الفرح والسرور بسبب ما لاقوه من ظلم على يديه حتى أن المشاعلية طافوا برأسها على البيوت ليلطمها الناس أو يبولوا عليها مقابل أجر معـين وشـارك اليهـود في ذلك[3] ، وفي سنة ٧٩١ هـ (١٣٨٩ م) طلب الناس إعادة الأمير « حسام الدين حسين بن الكوراني » الى ولاية القاهرة ـ وكان قد عزل عنها ـ فلما أعيد « فرح به الناس فرحاً زائداً واشعل اليهود والنصارى الشموع ابتهاجاً بذلك . . . وكان يوما مشهوداً »[4] .

ويضيق بنا المقام عن تتبع كافة الامثلة التي تزخـر بهـا المصـادر التـاريخية ، ولكننانحب ان نوضـح أنـه سواء كان خروج اليهـود ـ ضمـن سائـر المصريين ـ للمشاركة في مثل تلك المناسبات راجعا إلى مبادرات ذاتية نابعة منهـم ، أو كان ذلـك استجابة لأوامر الوالي أو المحتسب أو غيرهما [وهو ما نرجحه] فإن ما يهمنا هو أنهـم شاركوا المسلمـين والمسيحيين في المساهمـة في مثـل تلك التظاهـرات السياسية .

---

(١) رحلة بنيامين التطيلي · ص ١٧٣ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة : حـ ٧ ص ١٠٩ .

(٣) المرجع السابق ؛ حـ ٨ ص ٥٢ .

(٤) تاريخ ابن الفرات · حـ ٩ ق٢ ص ٩٥ .

ومن الناحية الاقتصادية يبدو دور اليهود واضحا ، فقد ساهموا في اعمال صيانة النهر مثل حفر الترع والخلجان ، وبناء الجسور . . . وما إلى ذلك ، وكان اشتراكهم في مثل تلك الاعمال يتم برغبتهم احيانا ، ورغما عنهم وبتسخيرهم - مثل غيرهم من المصريين المسلمين والمسيحيين - احيانا أخرى ، وتمدنا المصادر التاريخية بطائفة من الامثلة التي تؤكد ذلك[1] .

وعلى كل حال فإنه يبدو واضحا أن اليهود عملوا في مختلف الاعمال والمهن ولاسيما النشاط المصرفي والاعمال المالية في تلك الفترة[2] ، وربما يؤكد ذلك ما ذكره المقريزي من أحد مسالمة اليهود (يعقوب الاسرائيلي) كان صيرفيا في يهوديته[3] ، كذلك كان لبعض اليهود صناعات صغيرة يتعيشون منها فقد ذكر ابن دقماق أنه كانت توجد ثلاثة مطابخ للسكر بالقاهرة يملكها ثلاثة من اليهود ، كما ذكر انه كانت هناك سويقة خاصة باليهود في القاهرة[4] ، وقد ورد باحدى وثائق دير سانت كاترين ذكر امرأة يهودية تعمل دلاّلة مما يدل عى أن بعض نساءاليهودقد عملن في هذه المهنة[5] ، كما عمل بعض اليهود بمهنة التنجيم وحاز فيها شهرة واسعة ، فقد ذكر ابن دقماق أن احد اليهود كان يمتلك حانوتا يمارس فيه مهنة التنجيم مدة تزيد عن أربعين عاما حتى اشتهر المكان باسمه[6] ، ويتضح من بعض الوثائق التي ترجع للقرن السابع الهجري (١٣ م) ان بعض اليهود عملوا بمهنة النسخ ، ولدينا وثيقة عبارة عن خطاب من يهودي يعمل نساخا متجولا بالاقاليم الى زوجته[7] .

---

(١) انظر على سبيل المثال: المقريزي: الخطط ح ٢ ص١٦٧ ،السلوك: ح٤/ ق١ ص ٣١٣/ ص ٣١٤ ، ص ٣١٧ ص ٣١٨ .

(٢) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر المماليك ص ٤٠ - ٤١ ، تريتون : أهل الذمة ص ٢٠٧ ، Rabie«The Financial System of Egypt.P.3.

(٣) المقريزي : السلوك حـ ٤ / ق ١ ص ٤٤٣ - والمسالمة (مفردها أسلمي) هم أهل الذمة اليهود والنصارى الذين اعتنقوا الاسلام .

(٤) ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الامصار حـ ٤ ص ٤١ / ص ٤٢ ، ص ٤٤ .

(٥) وثيقة رقم ٢٥٢ تاريخها (١٦ صفر سنة ٨٨٩ هـ) .

(٦) ابن دقماق : الانتصار حـ ٤ ص ٤٩ .

(٧) Mann«The Jews‹vol.I.P.242.

وتوضح لنا الوثائق ايضا أن أهل الذمة من اليهود والنصارى قد امتلكوا العقارات في شتى انحاء البلاد ، اما عن طريق البيع والشراء واما عن طريق التوارث [1] كما انهم مارسوا عمليات البيع والشراء مع المسلمين في حرية تامة في ظل القوانين الحاكمة آنذاك ، كذلك فإن بعض وثائق دير سانت كاترين تدلنا على أن التعامل في مسائل البيع والشراء وغيرها من المسائل المالية بين اليهود والنصارى كان يسير في اطاره الطبيعي[2] .

ومن الناحية الاجتماعية فإن المصادر المتوافرة لدينا تشير في وضوح إلى أن أهل الذمة قد مارسوا حرياتهم الاجتماعية داخل اطار الحياة العامة للمجتمع ككل دون عوائق أو عقبات ، بل إن بعض وثائق الجينيزا كتبت بأيدي بعض المسلمين والمسيحيين الذين كانت تربطهم باليهود علاقة من نوع ما[3] ولكن هذه الحريات كانت تخضع من حين لآخر لبعض القيود التي كانت تفرض لسبب أو لآخر ، إلا أن ذلك لم يمنع اليهود من اداء دورهم في المجتمع .

وقد ادرك اليهود المصريون ـ كما ادرك غيرهم ـ أهمية نهر النيل في حياة مصر والمصريين باعتباره الشريان الرئيسي لحياة البلاد وساكنيها ومن ثم فإن القلق الذي كان يسود البلاد في حالة انخفاض مياه النهر أو تأخر الفيضان كان يشمل اليهود أيضا بطبيعة الحال ؛ فيخرجون مع غيرهم من أبناء مصر الى الصحراء لاداء صلاة الاستسقاء يحملون كتبهم المقدسة ويبتهلون الى الله أن يجري مياه النيل ، وقد امدتنا المصادر التاريخية بكثير من الامثلة الدالة على ذلك نذكر منها ما حدث سنة ٧٧٥ هـ حين توقف فيضان النيل واختفى الخبز من الأسواق وبدأ شبح المجاعة يطل بوجهه المرعب يتهدد البلاد فخرجت جموع المصريين من المسلمين واليهود والنصارى الى الصحراء لصلاة الاستسقاء[4] وفي سنة ٨٥٤ هـ نقص النيل فاشتد

---

(١) وثائق سانت كاترين : وثيقة رقم ٢٥٢ ، ورقم ٢٥٥ (تاريخها ٩٠٧ هـ) ورقم ٢٦٢ (تاريخها ٨٥٤ هـ) ورقم ٢٩٥ (تاريخها ٨٨٢ هـ) ورقم ٢٥٨ (تاريخها سنة ٨٤٩ هـ)

(٢) وثيقة رقم ٢٥٢ (تاريخها ٨٨٩ هـ) .

(٣) Rabie«The financial system«P.3.

(٤) ابن أياس : بدائع الزهور حـ ١ ص ٢٢٩ .

قلق الناس وخرجت جموعهم ومعهم اليهود والنصارى الى الصحراء حيث ظلوا معظم ساعات النهار يبكون ويتضرعون الى الله أن يزيل عنهم هذه الشدة[1] .

وظهر تأثير اليهود واضحاً في عادات وتقاليد المجتمع المصري آنذاك فيما أشارت إليه المصادر من أن بعض نساء المسلمين اعتـدن عدم شراء السمـك أو أكلـه أو إدخاله بيوتهن يوم السبت (ومن المعروف أن اليهود حرموا صيد السمك أو اكله يوم السبت) ، كما أن بعض النسوة تعودن عدم دخول الحمام أو شراء الصابون وغسل الثياب في يوم السبت متأثرات في ذلك ببعض العادات اليهـودية المتعلقـة بحرمة يوم السبب لدى اليهود[2] ، ويبدو أن تأثير اليهود (والمسيحيين ايضا) في عادات وتقـاليد المصريين في عصر المماليك كان واضحـا لدرجـة أثـارت اسـتياء المعاصرين الذين يشكو احدهم من أن الناس « . . . وضعوا تلك العوائد موضع السنن . . . »[3]

ومن ناحية أخرى فقد تأثر اليهود بالأمراض الاجتماعية المتفشية في مصر في تلك الفترة ، وطبيعي انهم خضعوا لنفس العقوبات التي كانت تنال كل من يرتـكب هذه الجرائم ، الا أننا يمكن أن نلمس اختلافا طفيفا بين عقوبة المسلم وعقوبة غير المسلمين من خلال ما تمدنا به روايات المؤرخين ، فقد زنا احد اليهود بمسلمة من بنات الترك فرجم اليهودي وأحرقت جثته ، وصودرت أمواله بينما اكتفـي بحبس المرأة[4] ، وفي جريمة أخرى زنى يهودي متزوج بيهودية ، ونجا الاثنان من عقوبة الرجم بفضل تدخل بعض المقربين من السلطان مما أثار استياء واستنكار مؤرخنا تقي الدين المقريزي[5] .

وكان على المحتسب ـ من الوجهة النظرية على الأقل ـ اذا رأى مسلما يظهـر

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة حـ ٧ ص ٢٠٦ / ص ٢٠٧ [ط . كاليفورنيا] .
(٢) ابن الحاج : المدخل إلى الشرع الشريف حـ ١ ص ٢٧٨ / ص ٢٧٩ .
(٣) المرجع السابق : حـ ٣ ص ٦٥ .
(٤) تاريخ ابن الوردي جـ ٢ ص ٣٠٦ .
(٥) المقريزي : السلوك ح ٤/ق ٣ ص ١٢١١ ـ ص ١٢١٢ .

الخمر أن يريقها ويؤدبه ، أما إذا كان الفاعل من اليهـود أو النصـارى اكتفـى المحتسب بتأديبه على اظهارها[1] .

ويبدو أن اليهود ـ باستثناء فترات الاضطهاد ـ قد تمتعوا بحرياتهم الاجتماعية ، واقتنوا الثروات الطائلة وتباهوا بمظاهر العز والرفـاهية ممـا جعلهـم هدفـا لاطماع السلاطين أحيانا ، واحقاد أبناء الرعية المطحونين تحت أعباء الضرائب (المظالم) التي فرضت عليهم من ناحية ، والأزمات الاقتصادية والمجاعات والاوبئة المتوالية من ناحية أخرى ، وينهض دليلا على ذلك ماكتبه المقريزي من أن أهـل الذمـة « . . . قد تزايد ترفهم بالقاهرة ومصر وتفننوا في ركوب الخيل المسوّمة ، والبغلات الرائعة بالحلي الفاخرة ، ولبسوا الثياب السرية وولوا الاعمال الجليلة . . . »[2] ، كما ان ابن الاخوة الذي عاش حتى اوائل القرن الثامن الهجري (١٤ م) [ت سنة ٧٢٩ هـ] يقرر أن مسيحيي ويهود عصره كانت دورهم تعلو على دور المسلمين ومساجدهم ، كما انهم اتخذوا لانفسهم القاب خلفاء وكناهم « . . . وتظاهـروا بأقوالهم وافعالهم ، وذكر أيضا أن اليهودي أو النصراني كان يسير بدابته والمسلم يجري في ركابه يطلب منه قضاء حاجة لـه ، كما أن نساءهم كن يتمتعن باحترام الجميع في الأسواق والحمامات وعند التجار الذين كانوا يكرمونهن دون أن يعلموا أنهن ذميات وذلك بسبب عدم وجود ما يميزهـن ـ من حيث المظهـر ـ عن نسـاء المسلمين[3] .

ويستفاد من إحدى وثائق دير سانت كاترين أنه كان يسمح لليهودي أو المسيحي الذي يشتري داراً تعلو على دور جيرانه المسلمين أن يحتفظ بها دون هدم الجزء العالي منها[4] كما أن اليهود كانوا يشترون الجواري المسلمات وغيرهن[5] .

---

(١) ابن الاخوة : معالم القربة ص ٣٢ .
(٢) المقريزي : السلوك حـ ٢ / ق ٣ ص ٩٢٣ / ص ٩٢٥ .
(٣) ابن الاخوة : معالم القربة ص ٤٢ / ص ٤٣ .
(٤) وثائق سانت كاترين : وثيقة رقم ٢٨٦ (تاريخها ١٣ جمادي الأولى سنة ٨٨٣ هـ) .
(٥) ابن تغري بردي : حوادث الدهور : حـ ١ ص ١٢٤ ، السخاوي : التبر المسبوك ص ٣٨٥ .

ويجدر بنا أن نشير الى أن ما ذكرناه في السطور السابقة لا يعني بأي حال من الأحوال أن روح الوئام والوفاق الاجتماعي سادت العلاقات بين المسلمين والمسيحيين واليهود طوال عصر المماليك فإن ذلك يبعد عن الحقيقة إلى حد كبير ، فالواقع أن المشاحنات بين الطوائف حدثت في بعض الأحيان لتعكر صفو العلاقات بينهم والراجح لدينا أن سبب تلك المشاحنات يرجع في اساسه إلى عوامل اقتصادية تمثلت في ثروات اليهود والنصارى التي اقتنوها من خلال وظائف الجهاز الاداري الذي كان مسؤولا عن ابتزاز اموال الرعايا فضلا عن حالة الفقر المدقع واعباء المظالم والمجاعات والاوبئة التي كان عامة المصريين فريسة سهلة لها باستمرار ، مما ولد نوعا من الحقد في نفوس جماهير العامة التي كانت تنتهز الفرصة للايقاع بهؤلاء الاغنياء ـ بغض النظر عن دياناتهم ـ بدليل أن الجماهير كثيرا ما شاركت في نهب ممتلكات كبار أمراء المماليك الذين يغضب عليهم السلطان ويصادرهم . كما أن تسيد المفاهيم الدينية التي حكمت علاقات الناس في العصور الوسطى كان من الأسباب الرئيسية وراء تلك المصادمات . وفي بعض الأحيان كانت تصرفات اليهود والنصارى تستفز المسلمين مما يخلق نوعا من التوتر في العلاقة بين الطرفين .

ولكن تلك الحوادث التي اتخذت دائما طابعاً فردياً ـ يفتقر الى عنصر الاستمرارية ـ لا يمكن أن تقلل من قيمة الحقيقة القائلة بأن العلاقات الاجتماعية بين المصريين من المسلمين واليهود والمسيحيين كانت طبيعية وسلمية الى حد بعيد في غالب الأحوال .

ومن الناحية النظرية كان المفروض أن يتميز اليهود بملابس معينة ، فقد فرض عليهم اللون الأصفر لتمييز عمائمهم وتحدد للسامرة اللون الأحمر ، وتعين على نسائهم الالتزام بنفس الألوان ، وأن تنتعل الواحدة منهن خفين من لونين متباينين لتمييزها عن نساء المسلمين ، إلا أن طريقة تفصيل وحياكة الملابس كانت واحدة بالنسبة للنساء في ذلك العصر[1] .

---

(١) ابن الاخوة : معالم القربة ص ٤١ ، ابن بسام نهاية الرتبة : ص ٢٠٧ / ص ٢٠٨ ، القلقشندي : صبح الاعشى حـ ١٣ ص ٣٦٢ ـ ٣٦٥ ماير : الملابس المملوكية : ص ١١٦ ـ وقد فرض على النصارى اللون الازرق الذي يرجع أصله الى بلاد الفرس والمتصوفة الذين اعتبرهم =

والواقع أننا نستطيع أن نؤكد أن هذه القيود فرضت لأول مرة في عصر المماليك بعد حوادث سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠١ م) والتي كانت نتيجة للغضبة الشديدة التي انتابت وزير المغرب الذي زار مصر في ذلك الحين وهو في طريقه لاداء فريضة الحج من جراء ما شاهده من تمتع يهود مصر ومسيحييها بكل مظاهر الحريات الاجتماعية والسياسية وتقلدهم لأعلى الوظائف ، وهو أمر لم يكن مألوفا بالنسبة للأقليات الدينية في تلك العصور التي حكمتها المفاهيم الدينية الى أبعد الحدود ـ ومن ثم أخذ ذلك الوزير المغربي في شن حملة ضارية ضد اليهود والنصارى آتت ثمارها في تلك الضغوط التي تعرض لها اليهود والنصارى في ذلك العام فقد الزم اليهود بلبس العمائم الصفراء ضمن قيود أخرى شملتهم هم والمسيحيين ، كما طردوا من وظائفهم التي كانوا يتولونها لدى الأمراء أو في ديوان السلطان[1] .

وفي عام سنة ٧٠٩ هـ حاول الوزير « ابن الخليلي » أن يقنع السلطان الناصر محمد بن قلاون أن يسمح لأهل الذمة بالعودة الى ارتداء العمائم البيضاء بالعلامات لقاء مبلغ من المال [مما يؤكد أنه لم تكن هناك قيود على ملابس أهل الذمة قبل حوادث سنة ٧٠٠ هـ سوى العلامات الملونة التي كانوا يضعونها فوق عمائمهم] . ولكن معارضة الشيخ « تقي الدين بن تيمية حالت دون تنفيذ اقتراح الوزير[2] .

وتعددت المراسيم السلطانية التي صدرت طوال عصر المماليك بشأن فرض القيود على أهل الذمة ، ويمكن أن نستنتج من هذا التعدد أن تلك القيود لم تكن متبعة ولم يلتزم بها اليهود والمسيحيون على الدوام مما جعل الدولة تصدر المراسيم المتتالية الملزمة بذلك ، كما أن فرض تلك القيود كان غالبا ما يأتي ضمن حملة عامة ضد اليهود والنصارى مبعثها سبب أو آخر ، ومن المهم أن نورد في هذا المقام ما

أهل السنة من الهراطقة ، بينما كان اللون الاصفر عند الأغريق والرومان والبيزنطيين شارة لتمييز محترفات البغاء من النساء ـ انظر : المقريزي : السلوك حـ ٢ / ق٢ ص ٣٧٥ . هامش رقم ١ .

(١) ابن أيبك الدوادار : الدر الفاخر ص ٤٧ / ص ٥١ ، السيوطي : حسن المحاضرة : حـ ٢ ص ٢١١ .

(٢) العيني : عقد الجمان : حوادث سنة ٧٠٩ هـ ، السيوطي : حسن المحاضرة حـ ٢ ص ٢١٢ .

قرره القلقشندي الذي عاش في اوائل القرن التاسع الهجري (١٥ م) من أن كل ما كان يميز أهل الذمة عن المسلمين هو لون العمامة وكونهم يركبون الحمير على البراذع ويثني احدهم رجله قدامه[١] مما يؤكد أنه فيما عدا تلك القيود فقد مارس أهل الذمة حياتهم الاجتماعية في اطار النشاط العام للمجتمع المصري في تلك العصور جنبا الى جنب مع المسلمين .

وينهض دليلا على قوة العلاقات الاجتماعية بين طوائف المصريين من مسلمين ويهود ومسيحيين أن الكل كانوا يشاركون في الاحتفال بالاعياد ذات الطابع القومي ـ على حد تعبيرنا المعاصر ـ بغض النظر عن دياناتهم مثل عيد وفاء النيل وعيد النيروز ، كما كان المسلمون يبادلون غير المسلمين التهنئة والهدايا في أعيادهم[٢] .

وفي سنة ٨٣٦ هـ حدثت مصادفة غريبة فقد توافقت بداية العام الهجري مع بداية العام القبطي مع بداية السنة اليهودية ، فقد كانت بداية العام اليهودي في ذلك العام في أول شهر محرم ، وفي اليوم التالي كانت بداية السنة القبطية ، بل إن بداية السنة عند اليهود الربانيين كانت هي نفس بدايتها لدى اليهود القرائين رغم اختلاف التقويم لدى كل من الفريقين ـ كما سنرى في جزء لاحق من هذا البحث ـ وهكذا كان ابناء الديانات الثلاث يحتفلون بأعيادهم في آن واحد مما عده المعاصرون من النوادر التي تجدر الاشارة اليها[٣] وكان اليهود يصنعون الكعك ويبيعونه للمسلمين في عيد الفطر[٤] .

أما عن دور اليهود في الحياة الثقافية والعلمية في عصر سلاطين المماليك ـ فإننا نستطيع أن نقرر أن النضال المذهبي بين الفرق اليهودية ـ ولاسيما بين اليهود الربانيين واليهود القرائين ـ والذي كان محوره الأساسي ترجمة وتفسير الكتاب المقدس ؛ قد انتج نشاطا أدبيا واسع النطاق لدى كل من الفريقين في العصور

---

(١) القلقشندي : صبح الاعشى حـ ١٣ ص ٢٦٣ .
(٢) ابن الحاج : المدخل الى الشرع الشريف حـ ٢ ص ٤٦ / ص ٤٨ .
(٣) المقريزي : السلوك حـ ٤ / ق ٢ ص ٨٨٠ .
(٤) ابن الحاج : المدخل حـ ١ ص ٢٨٧ .

الوسطى عبرت عنه تلك الاعمال اللاهوتية التي كتب أغلبها باللغة العربية ، وبالرغم من أن جماعة اليهود القرائين في مصر قد عاشت في سلام في العصور الوسطى فإن نتاجها من رجال الفكر تمثل في كتاب ومثقفين متوسطي القيمة من أمثال « صموئيل بن موسى المغربي » (القرن الثامن الهجري - الرابع عشر الميلادي) ، وتركزت جهود اولئك الكتاب في أعمال دينية كانت تدور حول تطوير وتلخيص اعمال اسلافهم ، والاستثناء الوحيد بين اولئك جميعا هو « موسى بن ابراهام الداري » الذي عاش في القرن السابع الهجري (١٣ م) وهو شاعر ذو موهبة متمايزة ، إلا انه اعتمد على محاكاة الانماط الشعرية والأساليب التي استخدمها شعراء اليهود في الاندلس ، وفي القرن التاسع الهجري (١٥ م) كتب احد اليهود القرائين حولية تاريخية عن الكتاب اليهود وهي بمثابة وثيقة عبرية تاريخية هامة[١] كما « أن ابراهيم بن فرج الله بن عبد الكافي » اليهودي الداوودي العاناني - والذي يبدو من اسمه أنه كان قرائيا - كان يجمع بين معرفة حاذقة بالطب الذي كان يتكسب منه والمام بمذاهب اليهود وأصول دياناتهم ، « . . . ولم يخلق بعده من يهود مصر مثله كثرة في حفظ نصوص التوراة وكتب الانبياء . . . »[٢] .

وكان للجماعات اليهودية في البلاد العربية والاسلامية تاريخ أدبي طويل ، وتميز الربانون بذلك التراث المتراكم على مدى عدة قرون ، ورغم المؤثرات الخارجية إلا أن النتاج الأدبي اليهودي ظل يهوديا في روحه واغراضه وشكله أحيانا ، وقد أدى النشاط الثقافي الذي شهدته البلاد الاسلامية التي عاش فيها اليهود - ومن بينها مصر - الى تخلي اليهود عن العبرانية والآرامية مما جعل الأدب اليهودي يسلك بالضرورة دروبا جديدة ، ومن ثم ظهرت اهتمامات جديدة عالجها الأدب اليهودي في العصور الوسطى شعراً ونثرا ؛ وكانت غالبية ذلك النتاج - لاسيما المنثور منه - مكتوبة باللغة العربية ، ووجد يهود مصر آنذاك الفرصة متاحة أمامهم في تلك الكثرة من الكلمات والتعبيرات العربية والعبرية لكي يستخدموها

---

(١) Universal Jewish Ency. Art. Karaites .

(٢) السخاوي : الضوء اللامع : حـ ١ ص ١١٦ .

في صياغة تلك الاهتمامات الجديدة[1] ، ونستطيع من خلال إحدى وثائق الجينيزا التي نشرها مان Mann أن نستنتج أن غالبية اليهود المصريين في العصور الوسطى كانوا يجهلون العبرية ، إذ أن الوثيقة عبارة عن خطاب مرسل من نساخ متجول الى زوجته ، وهو مكتوب باللغة العبرية ، وفي الخطاب يرد اسم من سيترجم لها الخطاب من العبرية الى اللغة العربية[2] ، مما يدل على أن تلك السيدة اليهودية لم تكن تعرف العبرية ، كما أن مؤلفات الكتاب اليهود حتى في المسائل المتعلقة بالتوراة والتلمود وغيرهما من أمور الشريعة اليهودية كانت تكتب باللغة العربية التي كانت لغة السواد الاعظم من اليهود المصريين في ذلك العصر ، ويتضح من عبارات الأسف والاحتجاج على تجاهل العبرية ـ والتي كتبها اشخاص كتبوا اعمالهم أيضا بالعربية ـ إن مشكلة الاحتفاظ باللغة العبرية وسيلة للتعبير عن النشاط الثقافي اليهودي قد واجهت يهود ذلك العصر إلا أنهم مع ذلك ظلوا يستخدمون العربية لغة للتعبير الأدبي[3] .

وتمدنا المصادر العربية ببعض الاسماء اليهودية التي تمايزت في الحياة الثقافية منهم « موسى بن كُجُك » (ت سنة ٧٦١ هـ) الذي كان بارعا في الطب ، مشاركا في عدة علوم ، وكتب بخطه الجيد كتباً كثيرة وقد اسلم هذا الرجل في مرحلة متأخرة من حياته[4] وهناك أسماء أخرى مثل « صدر الدين بن نفيس » الذي تقاسم رياسة الطب مع يهودي آخر سنة ٧٨٢ هـ ، وقد اسلم الرجلان[5] ، ومثل « أحمد بن المغربي الأشبيلي » الذي كان بارعاً في عدة علوم إماماً في الفلسفة والنجامة ، وقد اسلم سنة ٦٩٠ هـ أيام السلطان الأشرف « خليل بن قلاون » وولي رياسة الأطباء[6] .

(١) The Jews «their hist«vol.I.PP: 118-119.
(٢) Mann «The Jews «vol.I.P.242.
(٣) The Jews«their hist.vol.I.PP: 1121-22.
(٤) المقريزي : السلوك حـ ٣ / ق ١ ص ٥٦ .
(٥) ابن حجر : انباء الغمر حـ ١ ص ٢١٦ .
(٦) المقريزي : السلوك حـ ٢ / ق ٢ ص ١٨٧ / ص ١٨٨ .

وفي بعض الأحيان نجد في مصادر تلك الفترة ما يشير بوضوح الى أن العلاقات الطيبة قامت بين المثقفين من اليهود والمسلمين ، فقد ذكر « السخاوي » أن المؤرخ الكبير « تقي الدين المقريزي » كان ملماً بمذاهب أهل الكتاب حتى كان أفاضلهم يترددون عليه للاستفادة منه[1] ، وهناك ما يوحي بأن نوعا من الحوار كان يدور بين أبناء الديانات الثلاث في ذلك العصر .

إلا أن ذلك الحوار اتخذ في بعض الأحيان شكل السخرية من معتقدات الطرف الآخر ، كما أن التزمت وضيق الأفق جعل بعض المثقفين المسلمين يعارضون ـ تحت تأثير الفكر الديني السائد ـ مظاهر التقارب الاجتماعي بين المسلمين واليهود والنصارى ؛ بل إن البعض عد ذلك التقارب خروجا على الدين[2] ، ومن الخطأ ـ طبعا ـ أن نحكم على تلك الأمور بموازين عصرنا ، أو وفقا لمفاهيمنا الحالية ، وانما يجدر بنا أن نحاول تقييم تلك الظاهرة وفقا للمفاهيم الدينية التي كانت سائدة في تلك العصور ، والتي حكمت تصرفات الناس آنذاك ، ومن ثم فإن مثل تلك المواقف من جانب المثقفين عندئذ تبدو أمراً طبيعيا ، بل إنها بالقياس الى ما حدث في العصور الوسطى من اضطهادات دينية ومذهبية في غرب اوروبا ، وفي ظل الدولة البيزنطية تعتبر أمراً هيناً للغاية ؛ فضلا عن أننا يجب أن نضع في اعتبارنا روح القسوة التي ميزت تلك العصور ، فمن المعروف تماماً مقدار ما لقيه الأقباط من عنت واضطهاد من قبل المسيحيين البيزنطيين بسبب العداء المذهبي بينهما ، كما أن ما لقيه مسلمو ويهود الأندلس على يد المسيحيين أثناء وبعد حركة الاسترداد بلغ حدا فائقا من القسوة والفظاعة ، ولا أظننا بحاجة الى ترديد أهوال محاكم التفتيش الكاثوليكية في اوروبا . . . وما إلى ذلك من حوادث الاضطهاد الدينية التي تتواضع إلى جانبها حوادث اضطهاد يهود مصر في عصر المماليك إلى حد بعيد .

وعلى كل حال فإن القضاة والفقهاء وأهل العلم اعتبروا أن من واجبهم حماية دينهم واعتقدوا ـ بحكم عقلية وتفكير العصور التي عاشوا فيها ـ أن ذلك يتأتى

---

(١) السخاوي : التبر المسبوك في ذيل السلوك : ص ٢٣ .
(٢) ابن الحاج : المدخل حـ ٢ ص ٤٦ ـ ٤٨ ، حـ ٣ : ص ٥٦ .

بفرض القيود على اليهود والنصارى ، كما أن الطابع التيوقراطي لدولة المماليك ـ رغم ان الحكومة كانت ترتكز على الاقطاع العسكري ـ أتاح لجماعة المتعممين نفوذا واسع النطاق ، بفضل رغبة السلاطين في إكساب حكمهم صفة الشرعية عن طريق حماية الدين وتقريب الفقهاء وذلك فضلا عن رغبة هؤلاء «المعممين» في الاستئثار بوظائف الدولة التي نافسهم في شغلها اليهود والنصارى المتمرسون في شؤون الادارة والمالية ، فادعوا أن في استخدام أهل الذمة في الوظائف العامة مخالفة صريحة لتعاليم الدين الاسلامي .

على أن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن القضاة والفقهاء ورجال العلم المسلمين قد اتخذوا من أهل الذمة موقف العداء الأعمى على طول الخط ، فالواقع أن ذلك يخالف الحقيقة الى حد كبير[1] .

---

(١) انظر: ابن النقاش: المذمة في استخدام اهل الذمة ص ٩٩. حيث أورد المؤلف حادثة رفض فيها الشيخ ابن دقيق العبد مجاراة مشاعر العامة في هدم الكنائس سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠١ م) وانظر كذلك وثائق دير سانت كاترين ارقام ٢٣٠ ، ٢٦٨ ، ٢٦٦ ، و٢٦٥ حيث تشير الى الفتاوى الصادرة لصالح أهل الذمة حيث تنص الفتوى على عدم جواز تعرض المسلمين لأهل الذمة أو لاموالهم وبأنه على الحاكم منع ذلك حتى ينال ثوابه فضلا عن أن كثيرا من الاحكام صدرت عن فقهاء المسلمين لصالح اليهود والنصارى .

الفصل الثالث : أحوال اليهود الخاصة

عُرفَ اليهود خلال تاريخهم الطويل بانقسامهم الى عدة فرق دينية تدعي كل منها أنها هي الطريقة الأمثل والاكثر اقترابا من اصول الدين اليهودي[1] ، وتركز الاختلاف بين تلك الفرق بصفة أساسية حول الاعتراف باسفار التوراة والتلمود أو افكار بعض هذه الأصول ، وكان المشهور من هذه الفرق في مصر العصور الوسطى طوائف ثلاث هي : الربانون ، والقراؤون والسامرة .

الربانون :

ويطلق عليهم أيضا اسم (الربيون . الربانيون) وهم جمهور اليهود المعروفون اكثر من غيرهم ، وتعني كلمة « ربانيم » العبرية : الإمام او الحبر او الفقيه ، وقد عربت هذه الكلمة الى « رباني » ووردت في القرآن الكريم في قوله تعالى « انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شهدا ... الآية »[2] . وقد سمي ابناء هذه الفرقة باسم « الربانيين » إشارة الى اتباعهم تفاسير علماء اليهود وفقهائهم في المشنا[3] والتلمود[4] وتقيدوا بذلك حتى صار هذا الاسم سمة عامة لهم .

(١) عن المذاهب والفرق اليهودية انظر - حسن ظاظا . الفكر الديني الأسرائيلي : الفصل السادس (ص ٢٤٣ / ص ٣٢٢) وانظر أيضا : علي عبد الواحد وافي : اليهودية واليهود ص ٨٠ وما بعدها ، وكتاب مراد فرج ، القراؤون والربانون - انظر ايضا Universal Jewish Encyclopaedia «Arts «Karaites Rabbaniteand Samartines..

(٢) سورة المائدة : آية ٤٣

(٣) « المشنا » كلمة عبرية تنطق (مشنه أو مشناه) بمعنى المثنى او الثاني بالنسبة الى التوراة =

وكان الربانون هم اكثر فرق اليهود عددا في مصر العصور الوسطى ، فقد كان رئيس اليهود - بطوائفهم الثلاث - من اليهود الربانيين ، وظل ذلك الوضع قائما حتى بداية عصر سلاطين المماليك على الأقل ، وذكرت المصادر العربية أن الربانيين انفردوا عن غيرهم من اليهود بشروح لغوامض التوراة وضعها أحبارهم وفقهاؤهم ، كما تميزوا أيضا بتفريعات عن التوراة نسبوها الى النبي موسى عليه السلام وقد أباحوا تأويل نصوص التوراة ، كما أنهم لم يعتقدوا بسابق القدر[1] ، وقد شبههم « ابن الوردي » بفرقة المعتزلة[2] والحقيقة أنه لم يوفق في هذا التشبيه

المكتوبة ، وهو اسم كتاب عبري فقهي بمنزلة التفسير للتوارة ، وللربانيين اعتقاد خاص فيه ، وهو أنه سنة عن موسى عليه السلام أوحى بها الله إليه أثناء الاربعين يوما التي قضاها في طور سيناء وأمره الا يكتبها وأن يبلغها شفويا ، ولذا فهي تعرف باسم « التوراة الشفوية » ، وقد ظل الربانيون يتناقلون المشنا شفاها حتى عهد « يهودا الناسي » الذي جمع المشناه وكتبه خوفاً ، من النسيان أو التحريف ، ويقع المشناه في ستة اسفار هي : ١ - زراعيم (الزراعة) ، ٢ - (الموعد) الاعياد ٣ - ناشيم (النساء) ٤ - نزيقين (ضمان الضرر - او التعويض) ٥ - قداشيم (الوقف) ، ٦ - طهارات (الطهارة) - انظر : مراد فرج :القراؤون والربانون ص ٣٦ - ٤١ ، حسن ظاظا : الفكر الديني الاسرائيلي ص ٩٥ / ص ١٠٨ .

(٤) « التلمود » مشتق من المصدر العبري « لَمُدْ » ، ومنها « تلميد » العبرية التي تعني « تلميذ » في العربية لانه يعلم الفقه والدين وتفسير التوارة وهو عبارة عن جزئين : أحدهما « المشنا » والثاني « الجمارا » الذي هو شروح المشناه ، ويحوي التلمود عدة ابحاث لأحبار اليهود وفقهائهم وربانيهم في شؤون العقيدة والشريعة والتاريخ المقدس . . . وما الى ذلك ، وتقع هذه الابحاث في ثلاثة وستين سفرا - والتلمود اثنان « أورشليمي » - بالنسبة ليهود فلسطين ، « وبابلي » بالنسبة ليهود العراق ، والأورشليمي اقدم من البابلي ، وكان يحوي اربعة اسفار فقط ثم اكتشف السفر الخامس وأضيف إليه ، كما أن « الجمارا » فيه ناقصة أيضا عنها في البابلي - كذلك فإن المشناه في كل من التلموديين يختلفان عن بعضهما في كثير من المواضع لمزيد من المعلومات انظر ما كتبه حسن ظاظا الفكر الديني الاسرائيلي ص ٩٥ وما بعدها ، وكذلك ماكتبه المفكر اليهودي القرائي مراد فرج في كتابه « القرّاؤون والربانون » : ص ٣٦ وما بعدها .

(١) القلقشندي : صبح الاعشى حـ ١١ ص ٣٨٥ / ص ٣٨٨ (توقيع برئاسة اليهود) ، تاريخ ابن الفرات : حـ ٨ ص ٢٠ / ٢٢ والخالدي : المقصد الرفيع المنشا في صناعة الانشا (مخطوط) ورقة ١٤٠ - ١٤١ .

(٢) تاريخ ابن الوردي . حـ ١ . ص ٧٥

الذي لا يطابق الواقع ولعل السبب في ذلك هو الخلط بينهم وبين جماعة « الفريسيين » (فروشيم بالعبرية) ، وقد وقع بعض الباحثين المحدثين أيضا في خطأ الخلط بين « الربانيين » و« الفريسيين »[1] . « والفريسيون » هم جمعية من كبار احبار اليهود ، ويعني لفظ فروشيم العبري « المفروزين أو المنعزلين » ، وكان افراد هذه الجمعية يعتبرون انفسهم اكثر معرفة بشريعة الله من أي انسان آخر ، إذ انهم اعتقدوا أنهم عرفوا هذه الشريعة في نصوصها المقدسة وقد اطلقوا على انفسهم اسم « حسيديم » ومعناة « الأتقياء » واسم « حبرييم » بمعنى الرفاق والزملاء كما أنهم اطلقوا على جمهور اليهود اسم « عوام الارض » وذلك لجهلهم بأصول الدين اليهودي ولحاجتهم إلى قيادة « الفروشيم »[2] .

واستخدم اليهود الربانون الحساب في معرفة تقويمهم وتواريخهم وأعيادهم ، وقيل إن السبب في ذلك يرجع الى أنهم كانوا قبل السبي البابلي يعتمدون على التقويم القمري ، وظلوا يعتمدون على رؤية الأهلة في بداية كل شهر بعد عودتهم من السبي البابلي ، وكانوا يقيمون الرقباء فوق الجبال ليوقدوا النيران ويطلقوا الدخان عند رؤية الهلال ليعرف سائر اليهود أن الشهر الجديد قد بدأ ، ولكن اعداءهم السامرة خدعوهم عدة مرات بإطلاق الدخان قبل رؤية الهلال ، فلما اكتشف اليهود ذلك لجأوا الى الحساب في تقويمهم ـ ولكن بعض علماء الربانيين ـ فيما يذكر المقريزي ـ يرفض هذه القصة من أساسها ويزعم أن اليهود علموا أن آخر أمرهم الى الشتات فخافوا أن يسبب اعتمادهم على رؤية الأهلة اختلافا في مواسمهم ونزاعا فيما بينهم فاستخدموا الحساب لهذا الغرض[3] .

---

(١) على عبد الواحد وافي : اليهودية واليهود ص ٨٤ / ص ٨٥ حيث خلط بين الفريسيين و« جمهور الربانيين » .

(٢) اسرائيل ولفنسون: تاريخ اليهود ص ٢٠ / ص ٢١ ، حسن ظاظا : الفكر الديني الاسرائيلي ص ٢٥٢ / ص ٢٥٦

(٣) المقريزي : الخطط جـ ٢ ص ٤٧١ / ص ٤٧٢ .

القراؤون [1]

اما الفرقة الثانية من فرق يهود مصر آنذاك فهي طائفة « القرائين » الذين اشتق اسمهم من المصدر العبري « قَرُأْ » (بفتح فضم ممدودا والالف ساكنة) بمعنى : قرأ . أو دعى . أو نادى ـ وذلك لأنهم لم يؤمنوا بغير « المُقرا » أي ما يقرأ فيه وهي التوراة التي لم يعترفوا بغيرها من كتب اليهود ، كما أنهم لم يتقيدوا بما جاء في التلمود ، ولا يعتقد القراؤون في تأويل التوراة كما يفعل الربانون بل يتمسكون بظاهر نصوصها كما أنهم يعتقدون بسابق القدر ، ويعتمدون على رؤية الأهلة في تقويمهم وحساب اعيادهم ومواسمهم مما اوجد فروقا في هذاالشأن بينهم وبين الربانيين .

ويرجع بعض الباحثين أصل هذه الفرقة الى « عنان بن داود » (ت سنة ٧٩٠ / سنة ٨٠٠ م) الذي دعى الى مذهب جديد ينشق به على اليهودية بسبب الخلاف الذي نشب بينه وبين أخيه الاصغر « حنانيا » حول تولي منصب رأس الجالوت بعد موت « الجاون سليمان » حاخام الاكبر آنذاك [2] ، ويرى أصحاب هذا الرأي أن بعض علماء اليهود وأحبارهم الذين تأثروا بآراء المعتزلة واصحاب علم الكلام من المسلمين صاروا ينقدون تعاليم الربانيين ، ويتحفزون للخروج على احكام التلمود ، وتزعم تلك الحركة الفكرية الجديدة ثلاثة من علماء اليهود الذين وجدوا في ثورة « عنان » ضالتهم المنشودة لما كان له من مكانة ونفوذ ، فنصبوه على رأس حركتهم ، وكانت نتيجة ذلك ان قامت قيامة الربانيين فاسرعوا بالشكوى الى الخليفة العباسي «أبي جعفر المنصور » الذي أمر بحبس « عنان » ، وتمضي الرواية في هذاالسبيل فتقول ان ذلك الرجل لقى في سجنه الامام « أبا حنيفة النعمان » الذي أشار عليه أن يدعي أنه صاحب دين جديد وليس ثائرا على رأس الجالوت وقيل إن اصحاب « عنان » بذلوا كثيرا من الأموال حتى اطلق سراحه بشرط أن

---

(١) مراد فرج : القرّاؤون والربانون . حيث يعقد مقارنة طويلة بين الربانيين والقرائين وانظر كذلك Universal Jewish Ency. Art Karaites.

والخالدي : المقصد الرفيع ص ١٤٠ / ص ١٤١ ، القلقشندي : صبح الاعشى جـ ١٣ ص ٢٥٣ / ص ٢٥٧ ، رحلة بنيامين التطيلي ملحق رقم ١ ص ١٩٢ .

(٢) رحلة بنيامين : ملحق رقم ١ ص ١٩٢ ، علي عبد الواحد وافي : اليهودية ص ٩٤ / ص ٩٥

يرحل الى فلسطين ، وانتقل « عنان » وأتباعه الى فلسطين فعلا حيث شيدوا لأنفسهم كنيسا ، والف عنان كتابين ضمنهما قواعد مذهبه ـ ولكن بعض الباحثين المحدثين يرفض حكاية السجن هذه ويقرر أنها مختلقة من أساسها ، وينفي ما زعمه باحثو الربانيين من تأثر القرائين بالشيعة ، وفي رأي الدكتور حسن ظاظا أن « عنان بن داود » كان تلميذاً للمعتزلة الذين وقفوا موقف الحذر من المرويات الشفوية الاسلامية وتحرجوا من اعتبار الحديث النبوي مصدراً أساسيا للتشريع الاسلامي ، وذلك هو جوهر رفض عنان للتلمود وليس حقده على الربانيين بسبب الصراع على منصب رأس الجالوت[1] .

ويعود الباحث اليهودي القرائي « مراد فرج » بأصل القرائين الى فترة سابقة على عصر « عنان » ويقول ان جذور تاريخ الفرقة القرائية تمتد الى اعماق التاريخ اليهودي ، صحيح أن « عنان » لعب دوراً هاماً في تاريخ هذه الفرقة ، وردهم الى العمل برؤية الأهلة ـ متأثرا في ذلك بالمسلمين ـ فاختلفت المواقيت بينهم وبين الربانيين مما زاد من تباعد الفريقين فامتنع الزواج بينهم حتى اليوم ، ولكن هذا الانقسام لم يكن الدور الاول للانقسام التاريخي وانما جاء متمما له[2] . وقد ذكر المؤرخ « تقي الدين المقريزي » أن العانانية (نسبة الى عنان أو عانان بن داود) فرقة أخرى غير القرائين الذين ارجع تاريخ نشأتهم الى فترة سابقة في التاريخ اليهودي[3] ، وهو ما تقول به أيضا دائرة المعارف العالمية اليهودية[4] .

ومهما يكن من أمر فإن المعاصرين قد اعتبروا اليهود المصريين من القرائين والربانيين بمثابة الفرقة الواحدة ، وذلك رغم أنه كان لكل من الفريقين كنائسه الخاصة ، فقد تمثلت أوجه الاتفاق بين الفريقين في استخراج ستمائة وثلاث عشرة فريضة من التوراة ، كما اتفقوا على نبوءة موسى ، وهارون ، ويوشع وعلى نبوة

(١) حسن ظاظا : الفكر الديني الاسرائيلي : ص ٢٩٥ / ص ٣٠٦ .
(٢) مراد فرج : القراؤون والربانون ص ٤٣ .
(٣) المقريزي : الخطط جـ ٢ ص ٤٧٢ وما بعدها .
(٤) Universal Jewish Ency: ArtKaraites.

ابراهيم ، واسحق ، ويعقوب (وهو اسرائيل) وبنيه الاثني عشر (الأسباط) ، ولم يعترف القراؤ ون بغير هؤلاء ، أما أوجه الخلاف فمنها موقف كل من الفرقتين من مسألة القصاص وحرمة يوم السبت ، اذ أن القرائين اعتمدوا في هذه المسألة على حرفية النص ، كما أنهم لا يأخذون بما جاء في التلمود من تسهيلات فيما يتعلق بهذه الامور[1] .

السامرة :

كان السامرة أقلية ضئيلة في مصر العصور الوسطى كما يتضح من الوثائق ، ورغم أن الباحثين من اليهود القرائين والربانيين لا يعتبرون السامرة فرقة يهودية ، فإن الواقع ـ كما نراه من خلال المصادر التاريخية يقرر أن الحكام المصريين في العصور الوسطى اعتبروا السامرة فرقة يهودية تنطبق عليها شروط أهل الذمة وعومل السامرة على هذا الاساس[2] .

وقد نشأت هذه الطائفة في فلسطين بعد تدمير مملكة اسرائيل على يد ملك آشور « تغلت فلاسر » سنة ٧٣٨ ق.م. وهو الذي أجلى اليهود من فلسطين الى مناطق شمال ايران الحالية ، وأحل محلهم بعض القبائل في سكنى عاصمة المملكة ـ وهي مدينة السامرة القديمة التي بنيت على انقاضها مدينة نابلس العربية فيما بعد ـ ويعتمد أصحاب هذا الرأي على رواية الكتاب المقدس في هذا الشأن « . . . وأتى ملك آشور بقوم من بابل وكوت وعوه وحماة وسفروايم ، واسكنهم في مدن السامرة عوضا عن بني اسرائيل فامتلكوا السامرة وسكنوا في مدنها ، وكان ابتداء سكنهم هناك لم يتقوا الرب ؛ فأرسل عليهم السباع فهي تقتلهم لأنهم لا يعرفون قضاء إله الأرض ؛ فأمر ملك آشور قائلا ابعثوا الى هناك واحداً من الكهنة الذين سبيتموهم

---

(١) القلقشندي :صبح الأعشى : ح١٣ص٢٥٣ص٢٥٧،مراد فرج: القرّاؤ ون والربانون ص١١٣/ ص ١١٦ رحلة بيامين التطيلي ١٩٢ Universal Jewish Ency: Art Karaites

(٢) ابن فضل الله العمري : التعريف : ص ١٤٤ ، القلقشندي : صبح الاعشى حـ ١١ ص ٣٩١ / ص ٣٩٢ (وثيقة تحمل وصية رئيس السامرة) .

فيذهب ويسكن هناك ويعلمهم قضاء إله الأرض . . . »[1] ، والذين يعتمدون هذا النص من الباحثين يريدون وسم السامرة بأنهم حثالة من الأجانب المتعاونين مع اعداء اليهود ، وقد اتهمهم النص المقدس كما رأينا بعبادة الاصنام والوثنية - وكان طبيعيا ان يرفض اليهود السامرة باعتبارهم غرباء ووثنيين ، واطلقوا عليهم اسم « شومرونيم » اي السامرة ، ولكن هؤلاء حولوها الى « شمرنيم » اي « المحافظين » بدعوى أنهم أصحاب الدين الموسوي الأصلي[2] .

ولكن هناك من يرجع نشأة هذه الفرقة الى أيام السبي البابلي سنة ٥٨٦ ق.م ، ويقول أصحاب هذه الفكرة إن « قورش » - ملك بابل - حين أذن لليهود بالعودة الى فلسطين سنة ٥٣٨ ق.م وبدأوا في تجديد هيكل القدس سنة ٥٢٠ ق.م سعى السامرة في تأخير بناء الهيكل مما احنق اليهود عليهم فحرموا الزواج منهم ويتهم المؤرخون اليهود أبناء الطائفة السامرية بمساعدة الغزاة الاجانب ضد اليهود مثلما حدث أثناء غزو الاسكندر الاكبر المقدوني للشام ، ثم اثناء حملة القائد الروماني « بومبي » بعد ذلك مما جعل اليهود يصبون جام غضبهم على السامرة كلما سنحت لهم الفرصة لذلك ، ويقال ايضا ان السامرة عملوا في خدمة القائد الروماني « اسبازيان » أثناء ثورة اليهود ضد الادارة الرومانية مما جعل ذلك القائد يكافىء السامرة باعادة بناء بلدة شيكيم - وهي السامرة القديمة - واسماها Flavia Neopolis » وهي مدينة نابلس العربية حاليا[3] .

وبعد ان اصبحت المسيحية دين الامبراطورية الرومانية الرسمي في القرن الرابع الميلادي تعرض اليهود والسامريون جميعا لموجات الاضطهاد العنيفة التي

---

(١) سفر الملوك الثاني : اصحاح ١٧ .

(٢) رحلة بنيامين التطيلي : ملحق رقم ١ ص ١٨٥ / ص ١٩٠ ، ويرى مراد فرج : القرّاؤون والربانون ص ١٣ - ١٨ ان نشأة هذه الفرقة ترجع الى أيام السبي البابلي سنة ٥٨٦ ق. م . وهو التاريخ الذي بنى فيه السامريون هيكلهم فوق جبل جرزيم بنابلس ، وتقول التوراة ان يعقوب - الجد الاعلى للعبرانيين - بنى معبده المكرس للرب فوق هذا الجبل واسماه « بيت ال » أي بيت الله .

(٣) رحلة بنيامين التطيلي : ملحق رقم ١ ص ١٨٥ / ص ١٩٠ .

قربت بينهما فاعتبر اليهود السامريين فرقة يهودية ذات صبغة خاصة والحق بالتلمود فصل خاص بهم يعرف بفصل « الكوتيين » (كوتيم) لتنظيم العلاقة بين السامرة واليهود . وفي القرن السابع الميلادي انحسر النفوذ الروماني من بلاد الشام بفضل المد الاسلامي فأفاد اليهود والسامرة جميعا من روح التسامح الاسلامي ، ودخلوا في عداد أهل الذمة . وفي العصور الوسطى وجدت منهم جماعات صغيرة في مصر والشام .

ولم يعترف السامرة سوى بأسفار موسى الخمسة مما دفع بعض المصادر العربية الى القول بأن لهم توراة تخصهم غير التوراة التي بأيدي القرائين والربانيين ، وغير التوراة التي بيد النصارى ، كذلك انكر السامرة نبوة كل من أتى بعد موسى عليه السلام باستثناء « هارون » و« يوشع » ، كما أنهم يتخذون من جبل الجرزيم بالقرب من نابلس قبلة لهم ، ويحجون إليه ، ويقدمون عليه الاضاحي بدلا من صخرة بيت المقدس ، كما انهم يتفقون مع القرائين في الأخذ بظاهر نصوص التوراة ويعتمدون على رؤية الاهلة .

والسامرة شديدو الحرص على حرمة السبت وهم قبل سائر اليهود يؤمنون بيوم القيامة وبوجود الملائكة . ولهم لهجة عبرية خاصة ، ولغة خطية مغايرة يزعمون أنها جاءتهم صحيحة من عهد النبي موسى[1] .

عرض تاريخي لمنصب رئيس اليهود :

عصر الولاة :

يحيط الغموض الشديد بالأحوال الخاصة للطائفة اليهودية في مصر في تلك الفترة بسبب ندرة المعلومات ، اذ ان اقدم الوثائق التي تتعلق بأحوال اليهود آنذاك ترجع

(١) القلقشندي : صبح الأعشى حـ ١٣ ص ٢٦٨ / ص ٢٦٩ ، ابن قيم الجوزية : احكام اهل الذمة حـ ١ ص ٩٠ / ص ٩٢ ، رحلة بنيامين التطيلي : ص ١٨٥ / ص ١٩٠ ، حسن ظاظا : الفكر الديني الاسرائيلي : ص ٢٤٩ .

الى عام ٧٥٠ ميلادية ، وهي خاصة بيهود الفسطاط[١] .

ولا شك أن يهود مصر في عصر الولاة كانوا خاضعين - دينيا - لجاؤون العراق[٢] . ومن قبله لرئيس اليهود في الشام ، وذلك بحكم ان مصر كانت من ولايات الدولة الأموية وعاصمتها دمشق - ثم الدولة العباسية وعاصمتها بغداد ، ولكننا لا نستطيع أن نحدد مدى العلاقة بين رئيس اليهود والطائفة اليهودية في مصر آنذاك ، ومن ناحية أخرى فإن اليهود المصريين كانوا يتبعون في تعليمهم - الذي كان ديني الطابع - اكاديمية بابل (العراق) أو اكاديمية فلسطين ، ومن ثم عرف اتباع اكاديمية العراق باليهود العراقيين كما عرف اتباع أكاديمية فلسطين باليهود الشاميين ، ومن ثم فقد كان طبيعيا أن تحصل اكاديميات العراق على عون مادي كبير من اليهود العراقيين الذين استقروا في مصر باعداد كبيرة في ذلك الحين[٣] .

ونظرا لان كلا من الدولة الطولونية والدولة الاخشيدية كانت ما تزال تابعة من الناحية الشرعية والنظرية للخلافة العباسية في بغداد ، فإننا نرجح أنه لم تحدث أية تغييرات تذكر من رئاسة اليهود المصريين وعلى كل حال فإن المصادر المتاحة لا تحمل لنا شيئا بهذا الخصوص .

الدولة الفاطمية .

من المحتمل أن يكون منصب « الناجد »[٤] - وهو رئيس اليهود المصريين - من نتائج الفتح الفاطمي لمصر إذ انه لا يبدو معقولا أن يظل يهود مصر الفاطمية تابعين لرئيس يهود العراق الخاضع للخلافة العباسية وذلك لما كان بين الدولتين من عداء

---

(١) Mann «The Jews under the Fatimids« vol.I.P.13.

(٢) « الجاون » : هو رئيس الطائفة اليهودية ، وكان لقبه « رأس الجالوت » - في العراق - يقابل لفظ الناجد الذي كان يطلق على رئيس اليهود في مصر والاندلس - انظر : بنيامين التطيلي : ص ١٧٢ هامش ٥ .

(٣) رحلة بنيامين التطيلي : ص ١٧٠ وما بعدها ، Mann «The Jews« vol.I.P.15

(٤) « الناجد » - كلمة عبرية بمعنى الزعيم أو الأمير كانت تطلق على رؤساء اليهود في مصر والاندلس وهو بمكانة البطريرك لدى المسيحيين .

معروف ، وكان ناجد الفسطاط هو السلطة العليا في القاهرة والفسطاط ، وكان على حبر الاسكندرية ، وبقية رؤساء الجماعة اليهودية قبول قراراته[١] .

الايوبيون والمماليك :

في العصر الايوبي تمتع يهود مصر برئاسة مستقلة امتداداً لما كان موجودا في العصر الفاطمي ، وتذكر وثائق الجينيزا عددا من رؤساء الجماعة اليهودية ، استطاع مان Mann من خلالها ان يقدم تصورا للرؤساء المتعاقبين على الجماعة اليهودية ، ونذكر منهم اليهودي الذائع الصيت « موسى بن ميمون » الذي اعتنق الاسلام ثم ارتد عنه في عصر السلطان الناصر « صلاح الدين الايوبي » وتصفه احدى وثائق الجينيزا بأنه « الربي العظيم في اسرائيل » ، وقد خلفه ابنه ابراهيم في رئاسة اليهود[٢] .

ومن خلال وثائق الجينيزا نستطيع أن نتعرف على بعض أحوال الطائفة اليهودية في تلك الفترة إذ تخبرنا وثيقة ترجع الى القرن السادس الهجري (ق ١٢ م) أن يهود الاقاليم كانوا في حال من الجهل لدرجة أنهم لا يقدرون رجال العلم والمعرفة كما أنهم لا يحافظون على شعائر دينهم ، وذلك بسبب عدم وجود القادة الروحيين بينهم ، ويبدو من أسماء المدرسيين القادمين من اوروبا أن يهود مصر في ذلك الوقت اعتمدوا على الخارج في امدادهم بالقادة الروحيين[٣] بينما شهد القرن الخامس الهجري (ق ١١ م) نشاطا ثقافيا واسع النطاق بين يهود مصر كما سبق أن اوضحنا . ومن ناحية أخرى فإن وثيقة من مجموعة الجينيزا أيضا تشير الى عملية جمع الأموال من يهود مصر لافتداء بعض الأسرى من ايدي البيزنطيين ، وتوضح الوثيقة ايضا بعض اماكن التواجد اليهودي في مصر واعداد اليهود من خلال نسب التبرعات المكتوبة[٤] كما انها تكشف عن روح التضامن التي كانت تسود الجماعة

---

(١) Mann«The Jews .vol.I.PP.245-250.

(٢) ابن أبي اصيبعة : طبقات الأطباء ص ٥٨٢ / ص ٥٨٣ ، وانظر كذلك Mann«The Jews«vol.I.PP.245«250.

(٣) Mann«The Jews«vol.I.P.230

(٤) Ibid Vol p.232

اليهودية في مصر حينئذ .

ومن ناحية أخرى فإن بنيامين التطيلي ـ الذي يبدو أن زيارته لمصر قد جاءت أثناء وزارة صلاح الدين للخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين ـ قد أمدنا بأعداد تقديرية عن اليهود الموجودين في مدن مصر وقراها في ذلك الحين ؛ فقد كان عدد يهود المحلة حوالي خمسمائة ، وبلبيس ثلاثة آلاف ، وأبي قيج مائتان ووجد في بنها حوالى ستين يهودياً ، وسمنود مائتان ، وفي دميرة حوالي سبعمائة ، بينما قدر عدد يهود الاسكندرية بحوالى ثلاثة آلاف ، ودمياط مائتان وحلوان ثلاثمائة ، وقوص ثلاثمائة ، بينما قدر عدد يهود القاهرة والفسطاط بحوالي ألفي يهودي ، وفي الفسطاط وجدت كنيسة ليهود فلسطين باسم « كنيس الشاميين وأخرى ليهود العراق باسم « كنيس العراقيين »[1] ، وكشفت وثائق الجينيزا عن حقيقة أن اليهود لم يعيشوا في الموانىء والمدن الرئيسية ـ مثل القاهرة والاسكندرية ودمياط وقوص ـ فقط بل إنهم عاشوا أيضا في الريف المصري ولعبوا دوراً هاماً في التجارة والاعمال المالية[2] .

وفي عصر سلاطين المماليك كانت رئاسة اليهود لواحد من الربانيين ، ورغم أن رئيس اليهود كان يتمتع بسلطة الاشراف على الطوائف الثلاث فإن المدينا وثيقة تفيد، أنه كان للسامرة رئيس مستقل رغم قلة عددهم[3] ويقرر «تريتون»[4] أنه أصبح لكل من القرائين والسامرة رئيس جالوتهم الخاص ابتداء من سنة ٨٦٠ هـ (سنة ١٤٥٥ م) ولكن الوصية التي اوردها « ابن فضل الله العمري » الذي كان معاصرا للسلطان الناصر « محمد بن قلاون » كما اوردها القلقشندي (ت سنة ٨٢١ هـ) لا بد وان تكون قبل التاريخ الذي أورده تريتون ، كما أن السخاوي يذكر اسم رئيس السامرة ضمن أسماء رؤساء وطوائف أهل الذمة الذين تم استدعاؤهم لمجلس السلطان الأشرف «قايتباي» سنة ٨٤٦ هـ (١٤٤٢ م)[5] ، ومن غير المعقول أن

---

(١) رحلة بنيامين التطيلي : ص ١٧٠ / ص ١٧٧ .
(٢) Rabie(H.)«The financial system«P.3.
(٣) ابن فضل الله العمري : التعريف : ص ١٤٤ (وصية رئيس السامرة)
(٤) تريتون : أهل الذمة : ص ١٠٢
(٥) السخاوي : التبر المسبوك : ص ٣٦ .

يُستدعى رئيس السامرة أو رئيس القرائين اذا كان رئيس الربانيين ما يزال رئيساً مسؤولاً عن الطوائف الثلاث مما يرجح ان يكون منصب رئيس السامرة قد وجد قبل هذا التاريخ الذي ذكره تريتون ـ وعلى كل حال فإن رئيس السامرة كان مكلفا « . . . بلم شعث طائفته مع قلتهم ، وتأمين سربهم . . . » .

وقد عرف زعيم الطائفة اليهودية في المصادر العربية باسم رئيس اليهود ، كما اطلقت عليه أحيانا اسم (الربيس) ، بينما كان اسمه العبري هو « الناجد » أو ناجداليهود ، وما زال أصل هذه الوظيفة وتاريخ انشائها غامضاً فبينما يرى أحد الباحثين أنه يرجح أن تكون وظيفة الناجد من نتائج الفتح الفاطمي لمصر[١] يرى باحث آخر أن هذه الوظيفة انشئت في مرحلة متأخرة عن الفتح الفاطمي[٢] .

وما يهمنا هو أن رئيس يهود مصر أو الناجد قد تمتع في عصر المماليك بسلطات شرعية واسعة كما بينت الوثائق ، فقد كان له حق الاشراف على شؤون الطوائف الثلاث ـ في بداية عصر المماليك على الأقل ـ وأن ينظم علاقاتهم الداخلية فضلا عن علاقتهم بالدولة ، وكان من سلطته أن يعين من يليه في درجات السلك الكهنوتي وفقا لتعاليم الدين اليهودي ، وأن ينظم أمور الطائفة الدينية ويختار لكل طائفة من يختاره أبناؤها « . . . ليحكم فيهم بمذهبهم ورأيهم . . . » كذلك تمتع رئيس اليهود بحق توقيع العقوبة بمقتضى ما يحكم به الدين اليهودي[٣] .

ولدينا وثيقة مؤرخة ترجع الى اواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) وهي توقيع برئاسة اليهود للشيخ المهذب « أبى الحسن بن الموفق بن النجم بن أبي الحسن بن شمويل المتطبب » تقرر أن على موظفي الدولة إكرام رئيس اليهود واحترامه « . . . ومعرفة قدر ما قلدناه ، واعانته على ما ولیناه . . . »[٤] .

---

(١) Mann«TheJews «vol.I.PP.251-252.

(٢) Bosworth christian and Jewish dignitaries. Part. II PP 210-11.

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى : حـ ١١ ص ٣٨٥ / ص ٣٨٨ [توقيع برئاسة اليهود .]

(٤) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور : ص ٢١٦ / ص ٢١٧ .

كذلك حددت الوثائق الشروط التي كان يجب توافرها فيمن يتولى رئاسة اليهود ، ومنها أن يكون من اكبر الكهنة ، واعلم الأحبار ، وأن يتميز بالنزاهة وحسن الخلق ، وأن تكون له « خدمة في مهمات الدولة » ، كما اشترط أن يكون عارفاً بكتب اليهود وشرائعهم ملما باللغة العبرية الماماً كاملاً[1] ، الا أن إحدى الوثائق وهي وصية غير مؤرخة لرئيس اليهود لا تقرر أن من حق رئيس اليهود أن يشرف على شؤون الطوائف الثلاث ، مثلما ورد في الوثائق الأخرى ، ويلاحظ من تشدد الفاظ الوصية بإلزام اليهود بأن يجعلوا اللون الاصفر شعاراً لهم حقنا لدمائهم[2] (في الوقت الذي لا تشير فيه الوثيقة الى التزام السامرة باللون الأحمر) أن هذه الوثيقة يحتمل أن تكون صادرة بعد حوادث عام سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠١ م) التي سبقت الاشارة اليها ، كما أننا نرجح أن يكون السبب في خلوها من النص على أن من سلطة رئيس اليهود تنظيم شؤون الطوائف الثلاث ، هو أنه أصبح لكل من القرائين والسامرة رئيسهم الخاص ، ويؤكد هذا الرأي أن لدينا وثيقة أخرى تحمل وصية لرئيس السامرة - وهي غير مؤرخة أيضا - ومن المستبعد أن تصدر مثل هذه الوصية عن ديوان الانشاء دون أن يكون هناك توقيع برئاسة السامرة ، كما أنه من غير المعقول أن يصدر توقيع شريف برئاسة السامرة - لسامري يكون رئيس اليهود هو الذي عينه .

وبالرغم من السلطات التي تمتع بها رئيس اليهود - كما اوضحتها الوثائق - فالثابت أنه لم يكن في مقدوره أن يأمر بجلد أحد الاشخاص أو قتله في حالة الحكم بتكفيره ، ومن ثم كان اليهود يكتفون بالنفخ في « الشبور » اذا ما أرادوا تكفير أحد ما[3] .

---

(١) القلقشندي : صبح الاعشى حـ ١١ ص ٣٨٨ / ص ٣٩٠ (توقيع برئاسة اليهود)

(٢) ابن فضل الله العمري التعريف ص ١٤٢ / ص ١٤٣ ، القلقشندي : صبح الاعشى حـ ١١ ص ٣٨٨ / ص ٤٠٠

(٣) الشبور كلمة عبرية تطلق على آلة تشبه البوق ، ويستخدمه اليهود في المناسبات الدينية - انظر : القلقشندي : حـ ١١ ص ٣٨٥ / ص ٣٨٨ ، وتاريخ ابن الفرات حـ ٨ ص ٢٠ / ص ٢٢ - حيث جاء ذكر « الشبور » في توقيع برئاسة اليهود - انظر كذلك : تريتون أهل الذمة : ص ١٠٢

وقد أغدقت وثائق الجينيزا التي ترجع الى القرنين الثاني عشر ، والثالث عشر الميلاديين ألقاباً ذات رنين قوي على رئيس اليهود أو الناجد ؛ فقد سمي « مردوخاي العضر » [مردوخاي معناها بطل اليهود] « وناجد شعب الله » ، « وناجد اسرائيل ويهودا » « وناجد الدياسبورا »[١] . كما لو كان يهيمن على كل يهود الشتات في جميع أنحاء العالم ، وغير ذلك من الالفاظ الرنانة والألقاب القوية التي لا بد وأن يكون رؤساء اليهود في عصر المماليك قد حملوها أيضا .

وكان يلي الناجد في المرتبة بعض الموظفين الذين تولوا مناصباً تحمل طابعاً ادارياً مثل الاشراف على جمع التبرعات ، ورعاية المعابد اليهودية . . . وما الى ذلك[٢] .

اما قادة الجماعة اليهودية الروحيين ، فقد كان أولهم رئيس اليهود بطبيعة الحال ، وقد عرفنا سلطاته وواجباته ـ يليه « الحزان » الذي كان عليه أن يشرف على الصلاة ، واشترط فيه الالمام بأحكام التلمود بالنسبة لليهود الربانيين ، وكثيرا ما كان الحزان معلما ومؤلفا لأعمال كهنوتية يتلوها أثناء صلوات السبت والأعياد كما كان يقوم بالوعظ والخطابة ـ ثم موظف ديني آخر هو « الشليمصبور » وهو الامام الذي يصلي باليهود في معابدهم[٣] .

أما الحبرْ [٤] (الربّان) فقد كانت مهمته أن يتولى القضاء والفصل في المنازعات بين أفراد الطائفة ، كما يصدر الفتاوي وكان له الأمر والنهي في كل الأمور

---

(١) Mann« The Jews «vol.I.PP: 256-57.
(٢) Ibid« Vol I.P.257.

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى حـ ٥ ص ٤٧٤ ، مراد فرج : القرّاؤون والربانون ص ١٨١ ، Mann« The Jews «vol.I.PP.268«70.

(٤) كلمة « حَبْر » عبرية الأصل كانت تطلق في عصور ما قبل ميلاد المسيح على كل من اعضاء الشيعة اليهودية الفروشيم(« الفريسين»[انظر ما سبق عنهم] ، وحين تغلبت تعاليم تلك الطائفة أصبح كل متعلم من اليهود يحمل لقب « حَبْر » ـ انظر اسرائيل ولونسون : تاريخ اليهود ص ٢٠ / ص ٢١ ، مراد فرج : القراؤون والربانون : ص ٣٢ .

الدينية ، ولم يكن يتقاضى أجراً ، ومن ثم كان له أن يرتزق بالتجارة أو غيرها فإن لم تكن له مهنة جعلوا له راتباً .

ورغم أنه كان من سلطة رئيس اليهود النظر في مواريث الطائفة فالواقع أن ذلك لم يحدث باستمرار فإن مرسوم السلطان الناصر محمد بن قلاون الشهير الذي اصدره في اعقاب حوادث سنة ٧٠٠ هـ (سنة ١٣٠١ م) انتزع منهم هذاالحق ، وتكرر ذلك في مرسوم السلطان الصالح صالح بن محمد بن قلاون سنة ٧٥٥ هـ إذ جاء به « . . . كذلك رسمنا أن كل من مات من اليهود والنصارى والسامرة الذكور والاناث منهم يحتاط عليهم من ديوان المواريث الحشرية بالديار المصرية واعمالها وبسائر البلاد الاسلامية المحروسة ـ الى أن تثبت ورثته ما يستحقونه بمقتضى الشرع الشريف . . . » ، ويتم التصرف في الباقي بعد حمله الى بيت المال[١] ، ومن ناحية أخرى يذكر المقريزي في حوادث سنة ٨٤١ هـ ما نصه « . . . أقيم بعض سفلة العامة الأشرار في التحدث على مواريث اليهود والنصارى وخلع عليه ، وكانت العادة أن بطرك النصارى ، ورئيس اليهود يتولى كل منهما أمر مواريث طائفته فتوصل هذا السفلة الى السلطان والتزم له ان يحمل من هذه الطائفتين مالاً كبيراً فجرى السلطان على عادته في الشره وجمع المال وولاه . . . »[٢] .

اعياد اليهود

قسمت المصادر العربية اعياد اليهود المعروفة في عصر سلاطين المماليك الى قسمين[٣] هما : أولا : الاعياد الشرعية ، وعددها خمسة أعياد هي ما نطقت به التوراة وهي كما يلي :

ـ **عيد رأس السنة العبرية**، اسمه العبري (راس هيشا) وبالعبرية الحديثة (روش هاشاناه) ، وهو بمثابة عيد الأضحى لدى المسلمين ، ويحل موعده في

---

(١) انظر نص المرسوم في كتاب صبح الاعشى حـ ١٣ ص ٣٧٨ / ص ٣٨٧ .

(٢) المقريزي : السلوك حـ ٤ / ق ٣ / ص ١٠٣٨ / ص ١٠٣٩ .

(٣) القلقشندي : صبح الاعشى حـ ٢ ص ٤٢٦ / ص ٤٢٨ ، المقريزي : الخطط حـ ٢ ص ٤٧١ وما بعدها ، النويري : نهاية الأرب حـ ١ ص ١٨٧ / ص ١٨٩ .

بداية شهر تشرى من كل عام[1] • ويحتفل بهذا العيد في ذكرى افتداء اسماعيل بعد أن كاد ابراهيم عليه السلام يذبحه تنفيذا لأمر الله ، ويعتبر هذاالعيد أيضا عيد عتق وحرية عند اليهود لخلاصهم من فرعون وقد اسماه المقريزي « عيد البشارة » [اي البشارة بالعتق والحرية][2] ، وهناك بعض الاختلافات في مظاهر الاحتفال بهذا العيد لدى كل من القرائين والربانيين ، إذ كان الربانون ينفخون الأبواق ، أثناء الصلاة في معابدهم ، اعتمادا على تفسيرهم لبعض النصوص الواردةبشأن هذا العيد بينما اكتفى القرّاؤون بالصلاة والتهليل حمداً وشكراً لله لأنه يوم عتق رقاب لديهم[3] .

والعيد الثاني هو « عيد صوماريا » أو « الكبور » وهو يوم الغفران أو الكفارة عند اليهود ، كما أنه الصوم الكبير لديهم ، وعقوبة من لا يصومه في شريعتهم القتل ، وبينما جعل الربانون مدته خمسا وعشرين ساعة تبدأ قبل غروب شمس التاسع من تشرى ، وتنتهي بعد مضي ساعة من غروبها في اليوم التالي فإن القرائين جعلوا ذلك الصيام أربعا وعشرين ساعة تبدأ من غروب شمس تاسع شهرتشرى وتنتهي بغروبهافي اليوم التالي[4] ، وقد تشدد السامرة في صيام ذلك اليوم حتى أنهم لم يستثنوا منه الأطفال الرضع[5] ، وعرف هذاالعيد باسم « العُاشور » واشترط اليهود رؤية ثلاثة كواكب عند الغروب لجواز الافطار ، ويعتقد اليهود أن هذا الصوم هو تمام الأربعين الثالثة التي صامها موسى عليه السلام ، ويزعمون أن الله

---

(١) يعتبر شهر تشرى سابع شهور السنة العبرية من الوجهةالشرعية ،رغم أن المتعارف عليه بين اليهود أنه أول شهور السنة العبرية والسبب في هذا التحوير أن خروج بني اسرائيل من مصر كان في شهر نيسان الذي أمروا فيه بعيد الفصح ، ومن ثم يعتبر شهر نيسان بداية العام شرعاً عن التقديم العبري وشهور اليهود انظر : المقريزي . الخطط حـ ٢ ص ٤٧١ / ص ٤٧٣ ، مراد فرج .القراؤون والربانون : ص ١٢٤ / ص ١٢٥ ، حسن ظاظا : الفكر الديني الاسرائيلي ص ١٩٤ / ص ١٩٥ .

(٢) المقريزي : الخطط حـ ٢ ص ٤٧١ .

(٣) مراد فرج : القراؤون والربانون : ص ١٢٤ / ص ١٢٥ .

(٤) المقريزي الخطط حـ ٢ ص ٤٧٢ .

(٥) مراد فرج : القراؤون والربانون ص ١٧ / ص ١٨ .

تعالى يغفر لهم فيه جميع ذنوبهم سوى الزنا بالمحصنات وظلم الرجل لأخيه ، وانكار ربوبية الله تعالى[1] ، وفي هذااليوم ينقض اليهود عهودهم ومواثيقهم التي قطعوها لغير اليهود ، ويرى بعض الباحثين[2] أن هذا العيد الذي يرجع الى عصور العبرانيين الأولى مرتبط بأصول الشريعة اليهودية التي قررت يوما في السنة لحساب الذات ، وأن اليهود من طول ما عانوه من اضطهادات على طول تاريخهم جعلوا هذا اليوم يوما لنقض مواثيقهم ، واكل الديون التي عليهم لغير اليهود مما أوجد معارضة بعض فقهاء اليهود في العصر الحديث .

اما « عيد المظلة » أو « عيد الظلل » ، فكان يحتفل به في خامس عشر شهر تشري، وهو سبعة أيام يعيدون في أولها ، وفي اليوم الثامن عيد الاعتكاف عند الربانيين ، وفي ذلك العيد كان اليهود يجلسون تحت ظلال سعف النخيل الاخضر واغصان الزيتون ، وغيرها من الأشجار التي لا يتناثر ورقها تذكاراً للغمام الذي أظلهم به الله تعالى في التيه ، وانفرد القرّاؤون بصوم اليوم الرابع والعشرين من هذا الشهر ، وهو « صوم جدليا » الذي جعله اليهود الربانون في ثالثه[3] ويرجع هذا العيد الى أصول زراعية ورعوية ، ويؤكد ذلك أن من الاسماء العبرية لهذا العيد اسم « حج هاأسيف » ومعناها « عيد التخزين » .

والعيد الرابع من اعياد اليهود الشرعية هو « عيد الفطير » الذي عرف ايضا باسم « عيد الفصح »[4] في خامس عشر شهر نيسان اليهودي ، واختلفت الفرق اليهودية حول مدة الاحتفال بهذا العيد في سبعة عند القرائين ، ثمانية عند

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى حـ ٢ ص ٤٢٦ / ص ٤٢٨ ، المقريزي : الخطط حـ ٢ ص ٤٧٢ ، النويري : نهاية الأرب : حـ١ ص ١٨٧ .

(٢) حسن ظاظا : الفكر الديني الاسرائيلي : ص ٢٠٢ / ص ٢٠٣ .

(٣) المقريزي · الخطط حـ ٢ ص ٤٧٢ .

(٤) اكتسب هذا العيد عدة اسماء على مر العصور ، لكل منها معناه ومغزاه ، وقد اسماه « سعريا الفيومي » في ترجمته العربية للتوراة باسم الفسح اي الفرج بعد الضيق ، ومن اسمائه أيضا « الفطير » ، و« موسم الحرية » و« عيد الربيع » ـ لمزيد من المعلومات في هذا الصدد انظر : حسن ظاظا . الفكر الديني الاسرائيلي · ص ٢١٨ / ص ٢٢٠ .

الربانين ، وستة فقط لدى السامرة[1] ـ وفي هذه الايام ينظف اليهود بيوتهم من خبز الخمير ولا يأكلون سوى الفطير احتفالاً بذكرى نجاتهم من فرعون يأكلون الخبز الفطير ويحيون حياة البداوة ، وبالنسبة للربانين فإن هذا العيد لا يصح أبداً أن يبدأ أيام الاثنين أو الاربعاء أو الجمعة ، ولم يقيد القرّاؤون انفسهم بهذا الشرط[2] .

ويعتبر هذا العيد أيضا من اعياد التضحية ومواسم الحج لدى اليهود ، وبينما يحج القرّاؤون والربانون إلى بيت المقدس ، ويقدمون الأضاحي على الصخرة المقدسة ، يحج السامرة الى جبل جرزيم بالقرب من نابلس ويقدمون أضاحيهم على صخرته[3] .

أما خامس اعياد اليهود الشرعية فهو عيد « الاسابيع » او « عيد العنصرة » أو « عيد الخطاب »[4] ، وهي عندهم الاسابيع التي انزل الله تعالى فيها على بني اسرائيل الفرائض متضمنة الوصايا العشر المنسوبة الى النبي موسى ويحل موعد الاحتفال بهذا العيد في السادس من شهر سيوان في ذكرى مخاطبة الله لشيوخ بني اسرائيل مع موسى على جبل طور سينا على ما يزعمون ، وفي هذا العيد كان اليهود يصنعون القطائف التي يتفننون في عملها ويأكلونها تذكاراً للمن الذي انزله الله عليهم في التيه ، والاسم العبري لهذا العيد هو « عشرتا » بمعنى الاجتماع ، وقد تقيد الربانون بأن هذا العيد لا يجب أن يكون أيام الثلاثاء والسبت والخميس ، بينما لم يلزم القراؤون أنفسهم بمثل هذا القيد .

وكان لليهود اعياد محدثة بخلاف أعيادهم الشرعية ، وكان أشهرها عيدان هما : عيد الفوز (البوريم) وعيد الحنكة ، وهما العيدان اللذان تحدثت عنهما المصادر التاريخية العربية :

---

(١) مراد فرج . القراؤون والربانون ص ١٧ / ص ١٨ .

(٢) المقريزي : الخطط حـ ٢ ص ٤٧٣ .

(٣) رحلة بنيامين التطيلي ص ١٨٥ / ص ١٩٠ ، القلقشندي : صبح الأعشى حـ ١٣ ص ٢٦٨ / ص ٢٦٩ .

(٤) المقريزي الخطط حـ ٢ ص ٤٧٣ ، القلقشندي : صبح الأعشى حـ ٢ ص ٤٢٦ / ص ٤٢٨ .

أما عيد الفوز ، واسمه العبري « البوريم » فقد كان موعده السنوي ثالث عشر آذار ، ويبدأ بصوم يسمى صوم استير ، ويستمر حتى الخامس عشر من نفس الشهر ثم يقام احتفال صاخب « كرنڤال » ـ وتدور الأصول التاريخية لهذا العيد حول قصة « أستير » الواردة في السفر المعروف باسمها ؛ ورغم أن هذا السفر لا يعتبر من الأسفار القانونية في التوراة إلا أن مثقفي اليهود ما يزالون حتى اليوم يقرأون فصوله في معابدهم أثناء احتفالات هذا العيد ، ويتكون هذا السفر من اثني عشر اصحاحا تحكي قصة مؤداها أنه بعد تدمير اورشليم على يد « بخت نصر » سنة ٥٨٦ ق.م وحوادث الأسر البابلي الشهير ، حدث اثناء سكنى اليهود في بابل بعد نقلهم من فلسطين أن وقع امبراطور الفرس المدعو « اكسركسيس » [يسميه اليهود « أحشويروش » ، ويطلق عليه المؤرخون العرب اسم « ازد شير بن بابك »] في غرام استير هذه التي كانت فتاة رائعة الجمال وكانت ابنة عم أحد أحبار اليهود واسمه « مردوخاي » ، ولما تم زواج الامبراطور من « أستير » حظيت عنده ، مما جعله يقرب ابن عمها « مردوخاي » ، ولكن وزير الامبراطور المدعو « هامان » (هيمون) أكلته الغيرة من « مردوخاي » وغاظه ما توصل إليه اليهود من مكانة في البلاد ، فأقسم أن يستأصل شأفتهم جميعا من بلاده ، وحدد لذلك موعداً هو اليوم الثالث عشر من آذار . ولكن جواسيس « مردوخاي » أخبروه بذلك فنقله الى ابنة عمه التي أخبرت الامبراطور ، فأمر بقتل « هيمون » ، وأباح لليهود قتل شيعته لمدة يومين ما بين الثالث عشر والخامس عشر من آذار .

واتسمت مظاهر الاحتفال بهذا العيد في مصر العصور الوسطى بالخلاعة ومظاهر اللهو والمرح حتى اطلقت عليه المصادر العربية اسم « عيد المساخر » أو « عيد المسخرة »[1] ، إذ كان اليهود يبالغون في اظهار سرورهم أثناء الاحتفال بهذا العيد ، وفي عصر سلاطين المماليك كانوا يصنعون هيكلا من الورق المملوء بالنخالة رمزاً لهيمون او هامان يعبثون به في « كرنڤال » يضم كل اليهود ثم يحرقونه

(١) المقريزي : الخطط حـ٢ ص ٤٧٣ ، القلقشندي : صبح الأعشى حـ ٢ ص ٤٢٦ / ص ٤٢٨ ، النويري : نهاية الأرب حـ ١ ص ١٨٩ ، تاريخ ابن الوردي حـ ١ ص ٧٨ ، حسن ظاظا : الفكر الديني الاسرائيلي : ص ٢٠٧ / ص ٢١٢ .

في النهاية ـ وكان اليهود يتبادلون الهدايا والهبات في هذا العيد في العصور الوسطى.

اما العيد الثاني فهو « عيد الحنكة » أو « الحانوكة » : وهو ثمانية أيام تبدأ في ليلة الخامس والعشرين من شهر كسليو من كل عام ، وترجع مناسبة هذا العيد الى عام ١٦٥ ق.م. حيث كانت بلاد الشام تحت حكم البطالمة ، وحاول « انتيوخوس ابيفانس » إرغام اليهود على عبادة الاصنام ، ولكن كاهنهم الاكبر قاد حركة مقاومة ضده يعاونه أبناؤه الثمانية ، وتمكن الكاهن « متانيا » بمساعدة اصغر أبنائه المدعو «يهوذا المكابي» استعادة الهيكل من جيوش البطالمة وفي الخامس والعشرين من كسليو نظف الهيكل من التماثيل الاغريقية وزود « متانيا » وابنه « يهوذا » الهيكل بمذبح جديد ، وهكذا فتح المعبد مرة أخرى للشعائر الدينية ، ولكن اليهود لم يجدوا الزيت الكافي لاضاءة الهيكل فوزعوا الوقود على عدد المصابيح التي يوقدونها على ابواب بيوتهم في كل ليلة حتى تتم ثمان ليال ، ويعني الاسم العبري « الحنكة » أو « الحانوكة »[1] التنظيف لانهم نظفوا فيه الهيكل من تماثيل آلهة البطالمة وفي عصر المماليك كان اليهود يوقدون المصابيح على ابواب دورهم وفقا لعد تصاعدي ؛ ففي الليلة الأولى يوقدون قنديلاً واحداً ، وفي الليلة الثانية قنديلين . . . وهكذا حتى تتم ثمانية قناديل في اليوم الثامن ، وشاهد القلقشندي احتفالات اليهود بهذا العيد الذي لا يعترف به القرّاؤون نهائيا[2] .

مقدسات اليهود ومعابدهم :

أما معابد اليهود في مصر آنذاك فقد أحصى المقريزي لهم احدى عشرة كنيسة أو

---

(١) تطور لفظ « حانوكة » وأصبح يعني التدشين ، ويتم الاحتفال به حاليا بايقاد الشموع الكثيرة والأنوار المختلفة لمدة اسبوع كامل ، كما تقرأ في اثناء الاحتفالات قصائد كثيرة تشيد بالاعمال البطولية التي تمت في تلك المناسبة ، وقد اصبح هذا العيد بمثابة عيد للاطفال اليهود يأخذون فيه هداياهم كما يحدث في اعياد الميلاد بالنسبة للمسيحيين حين يهدون اطفالهم هدايا بابا نويل » ـ انظر : حسن ظاظا : الفكر الديني الاسرائيلي · ص ٢٠٥ / ص ٢٠٧ .

(٢) المقريزي الخطط حـ ٢ ص ٤٧٣ ، القلقشندي . صبح الأعشى حـ ٢ ص ٤٢٨ ، النويري · نهاية الأرب حـ ١ ص ١٧٨ .

معبداً في القاهرة والفسطاط وأقاليم البلاد المصرية كلها « محدث في الاسلام » على حد قوله[1] :

كانت كنيسة « دموة » بالجيزة هي اعظم معابد اليهود في ذلك العصر ، وقد ارتبطت هذه الكنيسة بالتراث الديني الاسرائيلي اذ يعتقد اليهود أنها بنيت في المكان الذي كان موسى عليه السلام يأوي اليه حين كان يبلغ رسالة ربه الى فرعون وآله ـ وهي نفس الكنيسة التي ذكرها بنيامين التطيلي الذي زار مصر في اوائل العصر الايوبي[2]ـ وكان بفناء تلك الكنيسة شجرة ضخمة وارفة الظلال دائمة الخضرة تذكر القصص الدينية اليهودية أنها نبتت في نفس المكان الذي غرس فيه موسى عصاه ، وقد اراد السلطان « الأشرف شعبان » استخدام اخشابها في بناء مدرسته تحت القلعة ولكن الذين ذهبوا لقطعها وجدوها غير صالحة لهذا الغرض ، وادرك المؤرخ تقي الدين المقريزي هذه الشجرة وقد جفت اغصانها وأوراقها ، وقيل إن يهوديا زنى بيهودية تحتها فتكورت اغصانها واكتسبت منظراً بشعاً وفي عيد الخطاب كان اليهود يحجون سنويا الى كنيسة « دموة » هذه عوضا عن حج بيت المقدس[3] .

والكنيسة الثانية هي كنيسة جوجر التي كان لها مكانة سامية في قلوب اليهود الذين نسبوها الى نبي الله الياس وزعموا أنه ولد بها وكان يرعاها طوال إقامته على الأرض حتى رفعه الله إليه[4] . كما كانت كنيسة المصاصة بالقاهرة أيضا تنسب هي الأخرى الى النبي الياس عليه السلام وزعم اليهود أنها بنيت قبل الاسلام بحوالى ستمائة وعشرين عاما ورممت في عهد الخليفة « عمر بن الخطاب » ، وكانت مجلسا لنبي الله الياس[5] .

وذكر بنيامين التطيلي أنه بالفسطاط كنيستان : الأولى ليهود فلسطين وتسمى

---

(١) المقريزي . الخطط حـ ٢ ص ٤٦٣ / ص ٤٧٤ .
(٢) رحلة بنيامين التطيلي ص ١٧٥
(٣) المقريزي : الخطط حـ ٢ ص ٤٦٣ .
(٤) المقريزي . الخطط حـ ٢ ص ٤٦٩ .
(٥) المرجع السابق حـ ٢ ص ٤٧٠

كنيس الشامين ، وكتب على بابها بالعبرية أنها بنيت في القرن الأول قبل الميلاد[1]، وذكر المقريزي أنه كانت توجد بهذه الكنيسة نسخة من التوراة اتفق اليهود على أنها بخط عزرا النبي - اما الكنيسة الثانية فكانت تعرف باسم كنيس العراقيين وقال المقريزي انها كانت بقصر الشمع ايضا مثل كنيس الشاميين[2] .

وهناك كنيسة يهودية كانت توجد بحارة الجودرية [التي كانت حارة اليهود جريا على عادتهم في سكنى حارات خاصة بهم في أي مكان بالعالم ، وقد خربت الكنيسة منذ أحرق الحاكم بأمر الله الفاطمي الحارة حين علم أن اليهود يجتمعون بها ويغنون اشعاراً تسخر من المسلمين ودينهم ونبيهم - ثم نقل اليهود الى سكنى حارة زويلة وظلوا بها طوال عصر المماليك ، ومنذ حريق الجودرية فإن أحداً من اليهود لم يعد يسكنها أو يبيت بها[3] ، وكان للقرائين كنيس باسمهم في حارة زويلة وكنيسة أخرى عرفت « بابن شميخ » في حارة زويلة أيضا ، وطبيعي ان هذا التركيز في عدد معابد اليهود في حارة زويلة يرجع في الأصل الى تمركزهم في تلك الحارة منذ سكنوها في أيام الحاكم بأمر الله الفاطمي .

وقد نشأت بعض المشاكل المتعلقة بترميم وتجديد المعابد اليهودية ولكنها كانت أقل كثيرا من تلك المشاكل التي نشأت بسبب كنائس النصارى ، ويرجع ذلك بطبيعة الحال الى ان يهود مصر آنذاك كانوا قلة بالفعل كما أوضحت وثائق الجينيزا ، وفي بعض الاحيان كان اليهود يحولون بعض البيوت الى كنائس يتعبدون فيها ،

---

(١) بنيامين التطيلي : ص ١٧٠ / ص ١٧١

(٢) ذكر بنيامين التطيلي أن هاتين الجماعتين اختلفتا في تقسيم التوراة ؛ فكان يهود العراق (بابل) يقسمون توراة موسى بعدد أسابيع السنة يتكون منها أسبوعيا ، ويختمونها في نهاية العام مثل يهود الأندلس [وهو ما يفعله اليهود الآن] بينما كان يهود فلسطين يقسمون كل سورة الى ثلاثة فصول يتلون منها فصلا في كل أسبوع ويختمونها في دورة ثلاثة اعوام - وكان أبناء الطائفتين يجتمعون مرتين سنويا للصلاة معا في يوم مهرجان التوراة (آخر أيام عيد الظلل) ، والثانية في عيد نزول التوراة (عيد العنصرة أو الأسابيع) - انظر بنيامين التطيلي ص ١٧٠ ، المقريزي : الخطط حـ ٢ ص ٤٧٠ .

(٣) المقريزي : الخطط حـ ٢ ص ٤٧٠ .

ففي سنة ٨٤٦ هـ رفعت دعوى على اليهود القرائين بسبب تحويلهم أحد البيوت الى كنيسة[١] .

وكان من سلطة رئيس اليهود أو الناجد الاشراف على معابد اليهود ، والحفاظ عليها وتعيين المسؤولين عنها كما اتضح من دراسة الوثائق من قبل ـ ومن ناحية أخرى فإننا نتبين من إحدى وثائق الجينيزا التي ترجع الى العصر الايوبي ان اعمال اصلاح المعابد اليهودية وصيانتها كانت تتم عن طريق التبرعات أو الهبات إذ ان هذه الوثيقة عبارة عن رسالة يطلب كاتبها من أحد كبار المسؤولين في الجماعة هبة من المال كان قد وعده بها لاصلاح معبد يهودي بأحد الاقاليم لأنه بدون سقف ، وتنزل الامطار بداخله[٢] .

الاوقاف والتعليم :

حدد الفقهاء المسلمون الشروط اللازمة لأوقاف أهل الذمة من اليهود والنصارى فجاء بهذه الشروط ان تكون موقوفة على اعمال الخير والمصالح العامة أو على الفقراء والمساكين أو أبناء الواقف وذريته دون أن يكون شرط الوقف بقاؤهم على دينهم ـ واعتبر هؤلاء الفقهاء ان الوقف لصالح المعابد والكنائس والأديرة إعانة على الكفر ومن ثم فهو غير جائز[٣] ، ومن ناحية أخرى فإن المشناه قد ضمن سفرا كاملاً لاحكام الوقف عند اليهود الربانيين .

أما أوقاف اليهود في عصر سلاطين المماليك فليس لدينا الكثير عنها ، وثمة إشارة إليها فيما ذكره السخاوي[٤] في حوادث سنة ٨٤٦ هـ عن تحويل احد المنازل الذي كان موقوفا على تعليم اطفال اليهود الى معبد يهودي ـ والاشارة الثانية تتمثل فيما ذكره « ابن دقماق » من أن هناك وقفا عرف « ببني عطا اليهود » كان موجودا في

---

(١) السخاوي : التبر المسبوك : ص ٣٦ / ص ٣٨ .

(٢) Mann, «The Jews» vol.I «P247.

(٣) ابن قيم الجوزية : احكام أهل الذمة حـ ١ ص ٢٩٩ / ص ٣٠٢ .

(٤) السخاوي : التبر المسبوك ص ٣٨ .

سوق المعاريج الذي كان سكن اليهود[1] ، والراجح لدينا أن أوقاف اليهود كانت مرصدة لخدمة الاغراض الدينية ، ومصالح الطائفة العامة وفقا لتعاليم التلمود .

ولم يكن عند اليهود نظام ثابت للتعليم بسبب وجودهم في الشتات ، وفي عصر المماليك كان التعليم يبدأ لديهم بشكل عام بتعليم اطفالهم في المنازل تعليماً خاصاً أو في مدرسة اعدت بقصد التعليم الأولي ، فقد ذكر السخاوي أن أحد بيوت اليهود كان موقوفاً على تعليم أطفالهم كما بينا من قبل ، ويتضح من بعض وثائق الجينيزا أن أطفال اليهود كانوا يتعلمون القراءة والكتابة وبعض الأدعية التي كانوا يتلونها في صلوات السبت والمناسبات الدينية كما يتضح أن كاتب الرسالة التي تحويها الوثيقة [وهو ديان اليهود] يطلب من المدرس تعليم ابنه القراءة من النواحي الاربع للورقة[2] رغبة في الاقتصاد بسبب ارتفاع اثمان الكتب وجور النساخين في ذلك العصر على ما يبدو ، ويتضح من وثيقة أخرى[3] أن بعض اليهود غير المصريين كانوا يفدون الى مصر ويشاركون في التدريس لحلقات من الطلاب .

وبعد المرحلة الاولية كان التلميذ من أبناء اليهود يرسل الى احدى اكاديمياتهم حيث يتتلمذ على يد مدرس أو حَبْر ذائع الصيت يسدرس عليه الشرائع والقوانين اليهودية والتاريخ المقدس واللغة العبرية ثم يأتي التدريب العملي من خلال المشاركة في خدمات واحتفالات السبت والاعياد اليهودية[4] .

وهكذا كان التعليم عند يهود مصر في العصور الوسطى يتميز بطابعه الديني ، وهو الطابع الذي غلب على تعليم المسيحيين والمسلمين أيضا في ذلك العصر بحكم المفاهيم الدينية التي حكمت ذلك الزمان واهله .

---

(١) ابن دقماق : الانتصار حـ ٤ ص ٤٢ .

(٢) Mann «The Jews.«Vol I«P240.

(٣) Ibid «vol.I.P.247.

(٤) The Jews«their history«vo .I.P.1244.

اليهود في مصر

لقد عاش اليهود وما زالوا يعيشون في مصر وفي غيرها من الدول العربية باعتبارهم مواطنين عاديين لهم ما لعامة الشعب من الدولة وعليهم ما عليه . وهذا كتاب يذكر بالحجة والشاهد ما لا يستطيع دفعه أحد،كيف عاش اليهود في مصر في كنف الدولة الإسلامية من فتح العرب مصر حتى الغزو العثماني . وكيف أن النظرية السياسية للدولة الإسلامية لم تضع عقبات أمام الرعايا من غير المسلمين ، فقد أتاحت الدولة لرعاياها من اليهود والنصارى الحرية في التجارة وممارسة شعائرهم الدينية .

ومن الثابت أن أهم شروط الصلح غداة فتح مصر على يد عمرو بن العاص اعتبار الفتح تم صلحاً ، وفرض الجزية على المصريين لقاء تأمينهم على أموالهم وارواحهم ، وقد شملت هذه الشروط يهود مصر الذين كان عددهم في الاسكندرية وحدها آنذاك نحو أربعين ألفاً .

ولكن هل راعى جباة الضرائب تلك الشروط أم تجاوزوها فخالفوها ! ! فأدى ذلك إلى نشوب حركات من التمرد والعصيان كانت أخطرها تلك التي نشبت في مصر عند مطلع القرن الثالث الهجري واضطرت الخليفة المأمون إلى القدوم بنفسه إلى مصر سنة ٢١٧هـ . ٨٢٣م ، بقصد اخمادها .

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ــ ساقية الجنزير
ت : ٣١٢١٥٦ ــ برقياً « موكيالي » بيروت
ص . ب . ١١/٥٤٦٠ بيروت